



عبد العزيز البشري

قطوف

مقدمة: د. طه حسين

الأعمال الفكرية



عبد العزيز البشري

١٩٩٨



Bibliotheca Alexandrina



0110531

قطوف

طبعة خاصة من مكتبة الخانجي
لمكتبة الأسرة
بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع

٩٨/٨٢٣٥

I.S.B.N. 977 - 01 - 5749 - 2

فُطُوف

عبدالعزيز البشري
تقديم: د. طه حسين



مهرجان القراءة للجميع ٩٨
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الفكرية)

قطوف

عبدالعزیز البشرى

تقديم: د. طه حسين

الغلاف

الإشراف الفنى:

للغنان محمود الهندى

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

المشرف العام

د. سمير سرحان

مقدمة



ومازال نهر العطاء
يتدفق، تتفجر منه ينابيع
المعرفة والحكمة من خلال
إبداعات رواد النهضة
الفكرية المصرية وتواصلهم
جيلاً بعد جيل - ومازلنا
نتشبه بنور المعرفة حقاً
لكل إنسان ومازلت أحلم
بكتاب لكل مواطن ومكتبة
فى كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت
«مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس
ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم
للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو
تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد
من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان
أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن،
مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التثويرية وأهدافها
التبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر
التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات
الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا
الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات
والمعرفة.

د. سمير سرحان

عبدالعزيز البشري

قطوف

١

مقدمة لطف حسين

مقدمة

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان ،
 فيذكرونه كما كانت الخنساء تذكر صخرأ أخاها ، وتذوب أنفسهم
 حشرات كلما ذكروه ، حتى يكاد الحزن ينتهي بهم إلى اليأس ، كما
 كانت الخنساء تلقى وتشقى كلما ذكرت أخاها صخرأ ، وكما صورت
 الخنساء ذلك أحسن تصوير وأبعده أثراً في النفوس وأشدّه وقعاً في
 القلوب حين قالت :

يذكرني طلوع الشمس صخرأ وأذكره لكل غروب شمس
 ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
 وما يكون مثل أخي ولكن أسلى النفس عنه بالتأسي

وصنع الله لأهله الذين يذكرونه حين تطلع الشمس وحين تزول
 وحين تهوى إلى مغربها ، ولأصدقائه الذين يذكرونه في تلك
 الساعات التي كانوا يلقونه فيها ، في ساعات العمل وجه النهار ،
 وفي ساعات الفراغ من آخر النهار ، وفي تلك الساعات الحلوة من
 أول الليل حين يتخفف الناس من أعمال النهار وأثقاله ، وحين
 يرسلون أنفسهم على سجيئتها ، فتفرح وتمرح ، ونعبت وتمزح ،

مقدمة

١.

وتخوض في كل فن من فنون القول ، ويجول في كل سبدان من ميادين التفكير .

فقد كان عبد العزيز رحمه الله أباً برّاً ، وأخاً وفياً ، وصديقاً حميماً . وكان من أجل هذا كله محبباً إلى النفوس ، أثيراً في القلوب ، عزيزاً على الأهل والأصدقاء جميعاً .

والشس تشرق وتغرب في كل يوم ، والليل يغمر الكون وينجلي عنه في كل يوم أيضاً ، وفي اختلاف الليل والنهار وفي تنابع الأيام والأشهر والسنين ما يجلو عن النفوس غمراتها ، ويفرج عن القلوب حسراتها ، ويعزّي الأحياء عن الأسوات ، وينسى الأحياء بعضهم بعضاً . ولكي أعتقد أن اختلاف الليل والنهار ، وتنابع الأيام والأشهر والسنين ، وتعاقب الأحداث الجسام والخطوب العظام ، واشتغال الناس بما يسرهم وما يسوءهم من شؤون الحياة — كل ذلك وأكثر من ذلك لبس من سأنه أن يعزّي عن عبد العزيز أهله الأقربين وذوى سودته من الأصدقاء والأخلاء . فقد كان عبد العزيز رحمه الله من هذه القلة الطليلة النادرة التي امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل ، والتي ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب في طبعه وفي جوهره ومادته ، إن صح هذا التعبير ، بحيث لا يبلو الانسان أمله إلا كلف به أشد الكلف وافتتن به أسد الانسان ، وأصبح لا يستطيع له نسياناً ، ولا يجد عنه سلوا مهما يلم به من الخطوب ، ومهما يختلف عليه من الظروف . وقد عرفت أنا من هذا الضرار فلة فليلة استأثر الله بعضها ،

مقدمة

١١

وأرجو أن بطل الله بقاء بعضها الآخر . ومن هذه القلة التي آثرها الله بجواره الكريم ثلاثة نفر كانوا أخلاء فيما بينهم ، وكانوا أصدقاء لكل من عرفهم أو اتصلت به أسبابهم من الناس . وهؤلاء الثلاثة هم : شاعر النيل حافظ إبراهيم ، وكاتب النيل عبد العزيز البسري ، وطبيب النيل علي إبراهيم . كلهم كان عذب النفس ، حلو الروح ، كريم السجية ، مهذب الطبع ، مترف الذوق ، مرهف الحس ، رقيق الشئيل . وهم من أجل ذلك كانوا متوادين متحابين ، لا يفرقون إلا ليلتقوا . ولولا أن خطوب الحياة كانت تفرقهم على كره منهم لما آتروا على اجتماع شملهم شيئا . وكانوا على ذلك أصدقاء للناس جميعا ، لا يعرفون البغض ولا تطمن نفوسهم إليه ؛ لأن نفوسهم خلفت من معدن الحب وفطرت على سجية الاخاء والوفاء وحس المعاشرة . ولذلك لا أعرف أحدا من الذين عرفوا هؤلاء الثلاثة — وما أكثر من عرفهم ووصل أسبابه بأسبابهم — قد تعلّق على واحد منهم بكلمة مؤذية أو خطة مؤلمة أو عمل يحزن أو يسوء . وإنما نحن نذكرهم جميعا فيمزق الأسى قلوبنا ، وتفرق اللوعة نفوسنا . ولا نكاد نذكرهم مجتمعين أو متفرقين حتى يأخذنا الشجاء لفقدهم ، وتبتسم نفوسنا الباكية لما نذكر من أعمالهم وأقوالهم ؛ فهم كانوا ابتساما على نغز الحياة في مصر مهما يكن حظ الحياة في مصر من العبوس والخرج ومن النكر والضيق . وهم كانوا كغيرهم من الناس يحسنون ويسيثون ، ولكنهم لم يسيثوا عمدا للإساءة قط ، ولم يسيثوا إلا كانت إساءتهم مهما تنفس في أول

أمرها مصدر رضا وغبطة وفكاهة ودعابة بعد وقت يقصر أو يطول .
 وكلهم نفع الناس في حياته كأحسن ما يستطيع الانسان أن
 ينفع الانسان . وكلهم وجد في نفع الناس لذة ومتاعا ، ولم يحفل بما
 جنى الناس عليه ولا بما جرعه من فنون الألم وضروب الشقاء .
 كانوا لا يغضبون إلا ليرضوا ، ولا ينتسئون إلا ليهتجوا ،
 ولا يعبسون إلا ليبسموا . فطرت نفوسهم على التفاؤل ، أو خلقت
 نفوسهم من التفاؤل ؛ فلم يعرف التشاؤم اليها سبيلا ، ولم يلقى الناس
 منهم إلا خيرا .

كان حافظ يتمتع الناس ويحيي نفوسهم بشعره الرائع . وكان على
 إبراهيم ينفع الناس ويحيي نفوسهم وأجسامهم بفنه البارِع وعلمه الواسع
 وتفوقه الرفيع . وكان عبد العزيز يسحر قلوب الناس ويستهوئ
 ألبابهم ، ويملك عليهم أمرهم ، وينسيهم صروف الحياة ، ويعزيهم عن
 آلامها بمحضرة دون أن يتكلم . فاذا تكلم فقد كان يرقى بهم من
 عالم إلى عالم وينقلهم من حياة إلى حياة . فاذا كتب ونشر فقد كان
 يأخذ عليهم سبل الاعجاب ، ويضطربهم إلى أن يقرأوا ويقرأوا
 منفردين قد خلوا إليه دون غيره من الناس . فاذا لقي بعضهم بعضا
 تحدثوا عما قرءوا ثم أعادوا القراءة ، ثم أخذوا يذهبون من الاعجاب
 بما يقرأون كل مذهب ، يسلكون من هذا الاعجاب سبل الجد وسبل
 الفكاهة ، وربما تشغلوا أنفسهم بذكر عبد العزيز في مجلسهم كله
 حتى يتفرقوا ولم يقضوا منه العجب .

أما أهله الأقربون وذوو سودته من الأصدقاء والخلان ، فيذكرونه

مقدمة

١٣

مصبحين ويذكرونه ممسين ، لا ينسونه ولا يتعززون عنه ، فليس إلى نسيانه أو إلى التعزى عنه سبيل . وأما هذه الكثرة الكثيرة من المثقفين الذين لم يلفوه ولم يستمتعوا بمحضه ، ولم يقولوا له ولم يسمعوا منه ، ولم ينعموا بفكاهته الحلوة ودعائته الرائقة ونادرتة الحاضرة ، وإنما سمعوا عنه من بعيد أو قرءوا له بين حين وحين ، فإن أمرهم معه كأمرهم مع غيره من الكتاب والشعراء والعلماء ، يستمتعون حين يتاح لهم المتاع ، ويرضون عما اسمتعوا به عجّلين ، ثم ينصرفون إلى غيره عجّلين أيضا ، يطلبون اليهم كثيرا أكثر مما يطيقون ، ولا يعطونهم من أنفسهم إلا قليلا أقل مما يستطيعون .

إن المثقفين جميعا يؤمنون بأن حافظا كان شاعرا فخلا ، وبأن عبد العزيز كان كاتباً ممتازا ، وبأن على إبراهيم كان جراحا متفوقا . قد أقرّوا ذلك في أنفسهم ، وسجلوه في قلوبهم ، وآمنوا به عن علم أو عن غير علم ، ثم لم يزيدوا على ذلك . فكم عدد الذين يطلبون القراءة فيما نظم حافظ ، وما كتب عبد العزيز ، ويطبلون التفكير فيما امتاز به على إبراهيم !

لم يمض ربع قرن على وفاة حافظ ، والناس يعدونه الآن شاعرا من الشعراء البارعين كما يعدون الشعراء القدياء . ولم يمض إلا أعوام قليلة على وفاة عبد العزيز ، والناس يعدونه كاتباً مجيداً كما يعدون غيره من الكتاب القدياء . ولم يدر العام بعد على وفاة على إبراهيم والناس يؤمنون له بالتفوق في الجراحة والطب ثم لا يزيدون على ذلك شيئا .

وفد يكون هذا ملائماً لطبيعة الأشياء ؛ فالموت يلغى الزمن بالقياس إلى الموق . ومن مات مات . وأفهم من هذه الجملة ما تستطيع أن تفهم . مات بالقياس إلى نفسه ، ومات بالقياس إلى أكثر الناس ، وربما مات إلى أشد الناس اتصالاً به وقرباً منه . مات ولم تبق منه إلا هذه الذكرى التى تظل مضطربة متأججة فى بعض القلوب حتى تخمد حين تكف هذه القلوب عن الخفقان ، وتظل فى سائر القلوب أشبه شىء بهذه الأسماء التى تكتب على اللافئات ، ينظر الناس إليها أحياناً ، ويمرون بها معرضين عنها فى أكثر الأحيان . لا يتعمدون النظر إليها إلا إن احتاجوا إليها ليستعينوا بها على التماس ما يبتغون من طريق . فالذين يؤرخون الأدب الحديث سيعتمدون تذكر حافظ وعبد العزيز وإطالة التفكير فيهما . والذين يؤرخون الجراحة الحديثه سيعتمدون تذكر على إبراهيم وإطالة الوقوف عنده . وأولئك وهؤلاء سيقفون عند هؤلاء الأشخاص كما يقف المتجول فى مدينة القاهرة عند هذه اللافتة أو تلك ليتبين طريقه إلى الغاية التى يريد أن يصل إليها .

ولست أدري أخير هذا أم شر ، ولكنى أعلم أنه الحقيقة الواقعة من جهة ، وأكاد أعقد أنه العقوق ، وأن هذا النوع من العقوق قد ركب فى طبائع الناس ، فهم يسرعون إلى نسيان من أحسن إليهم ، وهم يضيعون على أنفسهم بهذا النسيان منافع كثيرة ومتاعاً عظيماً . وآه ذلك أنك نقرأ الأثر القديم الذى مضت عليه القرون الطوال من آثار الأدباء والعلماء ، فتجد اللذة كل اللذة

والنعيم كل النعيم ، وترثي للذين لم يقرءوا هذا الأثر من هذه الأجيال الى لا تحصى ؛ لأنهم لم يقرءوه ولم يستمتعوا به . فالذين لا يقرءون اليوم حافظا ولا عبد العزيز قد دفعوا إلى هذا العقوق الذي ركب في طبيعة الناس ، فأضاعوا على أنفسهم شيئا كثيرا ، ما أجدرهم ، لو أحسنوا التفكير والتقدير ، أن يستدركوه ولا يفرطوا فيه .

وقد كنت من المفتونين بحديث عبد العزيز حين يتحدث ، ومن المفتونين بآثاره حين يكتب . وقد نوسلت إليه حين أزمع نشر « المختار » أن يأذن لي بنقديه إلى الناس . وشهد الله ما تكلفت ولا تزيت ، وشهد الله ما جاملت وما صانعت ، وإنما علمت فقلت بعض ما علمت ، ورضيت فقلت أيسر ما بوجهه الرضا .

وإني لأراني مع عبد العزيز في تلك الغرفة التي كان صديقنا على عبد الرازق قد اسأجرها في ربع من ربوع خان الخليلي ، وكنا نلتقي فيها حين نتفرق عن دروس الفقه وحين يرتفع الضحى لنقرأ بعض كتب الأصول أو بعض كتب البلاغة . وكان عبد العزيز يلهمنا بدعابته وفكاهته عن جد البلاغة والأصول . ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجهد فائسل منه كما تنسل الشعرة من العجين ، ودون أن يلقى كيذا . وأقمنا نحن على هذا الجهد ننفق فيه حياتنا ، ونزعم لأنفسنا أننا كنا نغذو به العقول والقلوب . وإني لأراني مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق في هذه الغرفة نفسها بعد أن تصلى العصر ، نقرأ معا كتاب الكامل للمبرد ، نحصل بهذه القراءة الأدب كما كنا نحصل البلاغة والأصول بقراءة الضحى . وكان مزاح عبد العزيز

وتندره يصرفاننا عن هذا التحصيل كما كانا يصرفاننا عن ذاك .
 ثم لم يلبث أن انسل من هذا التحصيل كما تنسل الشعرة
 من العجين ودون أن يلتقى كيدا . ذلك لأنه ، رحمه الله ، كان أقل
 الناس حبا للاستقرار وميلا إلى الامعان في طريق واحدة . فطر
 على حب التنقل ، على حب التنقل المادى والمعنوى جميعا . فكنيت
 تراه مصبحا في هذا الحى من أحياء القاهرة قى الأزهر أو قريبا منه ،
 فاذا صليت الظهر رأيته في حى آخر من أحياء القاهرة ملما بدار
 الكتب أو قريبا منها في قهوة من قهوات باب الخلق . فاذا صليت
 العصر رأيته في حى آخر من أحياء القاهرة في قهوة من هذه
 القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها في حى الأزبكية . فاذا
 صليت العشاء الآخرة رأيته في غير حى من أحياء القاهرة ، تلقاه
 عند آل عبد الرازق في عابدين ، وتلقاه عند غيرهم من ذوى المكانة
 والجاه ، وقد تلقاه في قهوة من قهوات الناصرية مع جماعة من الأدباء
 صدرهم حافظ إبراهيم رحمه الله . كل ذلك حين كنا طلاباً قبل أن
 تشب الحرب العالمية الأولى ، وقبل أن نتغير الدنيا ويتحضر هذا
 الجيل من أجيال المصريين بعد انقضاء الحرب الأولى وشبوب الثورة
 الوطنية واشتجار الخلاف بين السعديين والعديين ، وانتقال مركز
 النشاط لهذا الجيل إلى مكان آخر من مدينه القاهرة . فكنيت نرى
 عبد العزيز في ذلك الوقت في « بار اللواء » أثناء الأصيل ،
 وفي « الكافه ريش » حين بقل الليل ، وفي الأهرام أو غير
 الأهرام من دور الصحف حين تتقدم الليل . وربما رأيته أثناء النهار

مقدمة

١٧

أو أثناء الليل عند هذا العظيم أو ذاك من عظماء العدليين .
 ثم تتغير الدنيا مرة أخرى ويألف المختلفون ويتفق المختصمون ،
 فإذا عبد العزيز بغشى مجالس السعديين وأنديتهم كما كان يغنى مجالس
 العدليين وأنديتهم . ولكنه على كل هذا التنقل وعلى كل هذا الاضطراب
 بين أحياء القاهرة كان يثبت على مكان واحد يختلف إليه مهما تكن
 الظروف والأحداث ليلقى فيه على إبراهيم وأصحابه ساعة من ليل .
 وفطرت نفسه على حب التنقل المعنوي ، فكان يشارك في علوم
 الأزهر طالعاً أو كارهاً . وماذا يصنع وهو ابن شيخ الاسلام وقد
 سلكه أبوه رحمه الله مع الأزهرين في نظام واحد وكان يشارك
 في أدب القدماء وفي أدب المحدثين ، وكان يلم بالأدب الأجنبي الإماماً
 قصيراً من بعيد . وكان يحاول أن يتعلم اللغة الفرنسية ويعرف منها
 أطرافاً ويتندر بها في حديثه العذب . وكان قد أدمن قراءة
 « الأغاني » ، ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غابات الفصاحة ،
 وأثر في حديثه جزالة اللفظ ، وأعانه صوته المتين المليء على التضخيم
 والتفخيم والترصين . وكان من أروع ما يروى حين تسمع إليه
 متحدثاً بلغة الجاحظ وأبي الفرج أن تستخفك اللفظة الفرنسية قد
 انزلت بين هذا الكلام العربي الرصين المتين من حيث لا تدري
 أنت ولا يدري هو .

ثم يريد الله أن نعدو العوادي ، وأن تدلم الخطوب ، وأن
 نفقد عبد العزيز على غير توقع لفقده ، وإذا نحن نحرم هذا المتاع
 الغريب النادر الذي كنا نحبه حين نتحدث إليه ونستمع له ،

وإذا نحن مضطرون إلى أن نستحضر حديثه بقراءة ما ترك لنا من الآثار ، نقرأ ويخيل إلينا أننا نسمعه يتحدث ، فنجد في ذلك مزاجاً غريباً من اللذة الأليمة والسرور الحزين .

ثم يتحدث إلى أحد أصدقائي ذات يوم بأن لعبد العزيز آثاراً لم تجمع في كتاب ، نشر بعضها في المجلات وأذيع بعضها في « الراديو » وأعد بعضها للنشر أو للاذاعة ، وكان عبد العزيز يهبتها كلها لتجمع في سفر أو سفرين ، فأعجله الموت عن ذلك . فلا أكاد أسمع هذا النبأ حتى ألح على صديقي في أن يصل الأسباب بيني وبين هذه القطوف ، فيتاح لي ذلك . فلا أفرأ ولا أستقصي ، وإنما أزمع نشر هذه الفصول وفاءً بما لهذا الأدب العظيم من حق ، ورعايةً لما لهذا الصديق الكريم من حرمة .

لا أفرأ ولا أستقصي إجلالاً لآثار عبد العزيز أن تقرأ أو تستقصى قبل أن نقدم إلى المطبعة ؛ فقد كان راضياً عنها ، وهذا يكفي . ثم نطع هذه القطوف وترسل إلى في فرنسا ، فأخلو إليها في هذه القرية النائية من فرى الجبل أباما ، فلا أشك في أني لم أخطئ حين وثقت برأى عبد العزيز في قطوفه ؛ فهي الأدب كل الأدب ، وهي الفن كل الفن ، وهي الكلام الذي يجمع إلى رصانة الأدب القديم وجزاله خصب الأدب الحديث وثروته . وهي على ذلك كله إذا ضمت إلى ما جمع من آثار عبد العزيز صورة فذه لا نظير لها في الأدب المعاصر . فهي فصل مستقل من تاريخنا الأدبي يصور لوناً من ألوان هذا التاريخ لا نجده عند كاتب آخر

من كتابنا المعاصرين ، لا أكاد أستثنى منهم إلا صديقنا المازنى .
 فبعد العزيز أشد كتابنا المعاصرين عكوفاً على حياتنا المصرية ،
 وعلى حياة القاهرة خاصة ، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل
 القاهرة بنوع أخص . وهو أشد كتابنا نفوذاً إلى دقائق هذه الحياة
 وسرائرها ، وأشدّهم تمثلاً لخلاصتها ، قد خالطت نفسه ، ومازجت
 دمه ، وانطلقت على لسانه حين كان يتحدث ، وجرت مع قلمه
 حين كان يكتب . فهى أصدق سرآه وأصفاها للحياة المصرية فى
 عصر الانتقال . وقد كان عبد العزيز رحمه الله يحب أن يصور المعاصرين
 ويجلو صورهم فى فصول رائعة كانت تنشر بعنوان « فى المرأة »
 ثم جمعت بعد ذلك فى سفر أرجو ألا يكون قد انقطع من أيدي الناس .
 فافراً «قطوفه» هذه ، فسترى فى كل فصل من فصولها سرآه مصقولة
 صافية صادقة أدق الصدق ، لا يعكس صوره فرد من الأفراد ،
 وإنما تعكس صورة بيئة من البيئات ، أو جماعة من الجماعات ،
 أو لون من ألوان التفكير المصرى ، أو فن من فنون السيره المصرية
 فى هذا الطور أو ذاك من أطوار الحياة . فاذا فرغت من قراءة
 هذه «القطوف» فقد استفرت فى نفسك صوره كاملة شاملة دقيقة لحياة
 مصرية ذهب أكثرها وبقي أقلها ، ولحياة مصرية جديدة ناشئة
 لم يتم تكوئنها بعد ، ولكن عبد العزيز سبق بذلكه النافذ
 وملاحظته الدقيقة إلى التنبؤ بحقائقها وبما سيختلف عليها من الأطوار .
 وكنت أقدر أن رعاية حرمة الأدب والوفاء بحق الصديق هما
 اللذان قد دفعانى إلى نشر هذا السمر ، فاذا أنا أقرأ ثم لا أشك

فى أنى قد أهديت بنشره طرفه من أقوم الطرف وأشدها إمتاعا إلى المثقفين من قراء العربية عامة وإلى الشباب منهم خاصة . فحما أعرف أن كاتباً من الكتاب المعاصرين أتيح له من التوفيق مثل ما أتيح لعبد العزيز فى هذه الفصول التى تسجل من حياتنا ما كاد يضيع ، وتسجله فى أروع لفظ وأبرعه وأجزله وأمثله . وما أشك فى أن كثيراً من هذه القطوف لو ترجم إلى بعض اللغات الأوروبية لفتن به كثير من أهل الغرب فتونا .

ولو علمت أنى أستطيع أن أشير على وزارة المعارف فتسمع منى وتقبل مشورقى لأشرت عليها فى أن تجعل كتب عبد العزيز البشرى ، وهذا الكتاب منها خاصة ، بين الكتب التى تدرس فى المدارس الثانوية ؛ فما أعرف أدر منه على تحبيب الأدب العربى إلى الشباب وتزيينه فى قلوبهم ، وإقناعهم بأن لغتنا الفصيحة القديمة تستطيع أن تؤدى من المعانى والأغراض ما تقتضيه الحياة الحديثة دون أن يمسها من ذلك نصب أو لغوب .

رحم الله عبد العزيز ، وهياً للأدب العربى من يقوم مقامه . ولولا الثقة بالله لقلت كما قال الحجاى فى العصر القديم: « وما أراه يفعل » . ولكن قدره الله وسعت كل شئ ، ورحمته وسعت كل إنسان ؛ فليعوض الله من عبد العزيز خيراً ، وليسغ الله على عبد العزيز رحمة ونعمه وثواباً .

طه حسين

ميرولس — يوليو ١٩٤٧

أيام في الريف

لقد طال عهدنا بالريف حتى كاد ينكرنا وحتى كدنا ننكره .
ولست أزعم أنني ولدت في الريف ، أو أنني نشأت فيه . على أنني
كنت أكثر من انتباهه والعيش فيه كلما تمياً لى انتباهه والعيش
فيه . ولكن الدهر الماكر قد قطع السبب إليه ، فحرمنى غشيانه
سنين عددا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وإذا نحن قلنا الريف ، قلنا الطبيعة ، أو أدنى الأشياء إلى الطبيعة
والطبيعة ، مهما يكن لون حياتنا ، هى مصدرنا ، وهى اللاصقة بخلقنا ،
وإذا رددنا ساعة إلى نفوسنا ، لم نجد غير الطبيعة بين أيدينا وعن
الايمان والشئلى جميعاً . ولقد يبعد بنا طول العيش فى المدن ، ولقد
يمعن بنا فى شتى السبل ، حتى ننسى الطبيعة أونكاد ننساها ، ويرجع
الظن بأنه قد انحسم بيننا وبينها كل سبب ، وانقطعت جميع وشائج
الرحم ، ولا تزال منها على هذا ، ولا تزال منا على ذلك ، إلى أن
نغشى الريف ، فإذا السبب موصول ، وإذا الرحم ما برحت
واشجة ، وإذا العطف يعتلج فى الصدور ، وإذا الحنان يترقق
فى النفوس ، وإذا لهوات القلوب تفتتح ، فلو أمكن لها لحست هذه
الطبيعة حسواً .

عبد العزيز البشرى

وهل كان عجباً أن يحس المرء أبلغ الغبطة والأنس ، إذا آب إلى أمه الحنانة الرءوم بعد طول النوى ، مهما يكن قد ضرب في الأرضين ، وتقلب في شتى الأقطار ، وعایش أصناف الخلق ، وتوسم مختلف الوجوه ، وهفا قلبه إلى ، من هفا من الناس ؟

اللهم إن عیش الطبيعة هو الموصول بفطرننا ، واللاصق بطباعنا لأننا ، كما قلت ، عنها صدرنا . فاذا أحال المقام في المدن أساليب عیشنا ، ولون في فنون حیاتنا ، وأوال لنا صوراً من صور ، وأبدل مناهج متعنا بمناهج أخر فان شيئاً من هذا لم يقطع ما بیننا و بین الطبيعة ، ولم يخرجنا منها أو ينزعها منا ، وإلما يشغلنا عنها . فاذا نحن طالعناها لم نزل شأننا على الحالم إذا استيقظ ، والغرب إذا آب واستقر به القرار بين الأهل والصحاب !

وكذلك كنت من الطبيعة حين هبطت الربف ، وامتد بصرى في الآفاق ، وأحاط بى الزرع والماء . وماكدت أسلخ بضع ساعات حتى استشعرت أنساً كأننى كنت فى وحشة . ووجدت من الألف ما يجد الآئب من الغربة . وبالى لا أجد هذا وأستشعر هذا ، وقد رجعت إلى أصلى وتزعت إلى طبعى ، وخلعت عن نفسى كل كلفة ، وامتلتختها من كل ما غرست من تصنع استكرهت عليه مناهج تلك الحياة . وما أجدر الطبيعة بأن تقهر الصنعة وإن طال بها الزمان ! هذه سماء كبيرة بعيدة الآثار ، وهذه أرض مبسوسة تشفها الأنهر والترع ، وتنعطف فيها الجعافر والخلجان ؛ وقد لبست حلتها الخضراء فأصبحت نهياً للعبون من حسن وجمال .

ولقد أحسن ، كدأبه ، كل الاحسان المغفور له الملك فؤاد الأول
إذ تقدم بتغيير لون العلم المصرى من الحمرة إلى الخضرة ، فجانس
بين شعار هذا الوطن وبين حليته وبهجة منظره ، ومعين ثروته ومادة
حياته من العهد القديم !

نم هذا الفلاح جاهد في حرث الأرض وفلحها ، ولا زال كدأبه
معه ، ولا زالت كدأبها معه من الزمان القديم : كلما غذاها
بالسماد ، ورواها بالماء ، أمدته بالخير ، ووصلته بالنعاء .

ولعل أول صناعة عالجها الإنسان في هذه الحياة هى استنبات
الأرض واستخراج مايجود به من ألوان الثمرات . وستظل ، على التحقيق
هذه الصناعة قائمة إلى غاية الزمان .

عاش الفلاح للأرض ، وعاشت الأرض للفلاح ، وعاشت كلاهما
للخلق أجمعين .

هذا عيش الريف في النهار ، فإذا جن عليه الليل نامت الطبيعة
ونام معها الإنسان والحيوان ، فلا تسمع فيها جساً إلا ما تسمع من نباح
كلب أو عواء ذئب ، أو نفيق ضفدع ؛ ولقد تسمع في بعض الليل عرnf
بندقية يطلقها بعض عسس القرية ، أو حراس الببادر (الأجرا ن) ،
أو الزروع إذا أدركت النمار . فإذا كانت الليالى قمراء ، تجاوزت
السكروان بالتنغم والتغريد ، وأطالت الأنفاس بالشدو والترديد .
وناهيك بليالى القمر في الريف ، هذا وجهه قد تغرد في الأفق
جميعه ، تفرد ملك لا يشركه أحد في الحكم والسلطان . على أنه

مفيض على الأرض ما أعطاه الله من حسن وبهاء ؛ وهذه منحة المتصلة من اللجين المذاب ، وقد ديعت بخضره النبات ، فخرج من اجتماعهما لون هو سحر في السحر وفتنة في الفتنة . منظر ، وإن كان يوحى بالشعر ، لا يتعلق بوصفه الشعر . يضيء النفس ويملاء الصدر ألين الفرح وأرققه ، ويحرك عواطف حلوة لذيدة هادئة ، دونها ماترى في أمتع الأحلام .

يحرك في صدرك ألواناً من العواطف تشعر بك بأنك بت أسعد الناس . عواطف ، وإن كانت حديدة لا عهد لك بها من قبل ، سرعان ما يعتريك الشعور من قرارة نفسك ، بأن هذا هو الشيء الذى طالما حاولت الاستشراف له ، فتحول بينك وبينه ظلمة النفس واختلال أداة الحس ، بما جشمتها من كلفة في وسائل الحياة .

فاذا كانت لىالى السرار ، فالأفق كله كتلة واحدة من الفحيم الحالك السواد . هيات أن ينفذ فيه النظر ، ولو أبى فتر من الأفطار :

« ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج بده لم يكديراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . » (١) صدق الله العظيم .

هذا حديث موجز عن الطبيعة ماثلة في ريف مصر . أما الحديث عن الفلاح المصرى في هذه الأيام ، فما يردع ويهول : فقر لا يعد له فقر ، ويؤس لا يلحقه يؤس . مال غائب ، ومطالب لا تبرح

حاضرة . ومن أين للمسكين بالمال يواقي به بعض الحاجة أو يدافع المطالب الملحة من كل جانب ؟

هذه غلات أرضه مكدسة بين يديه ، لا يجد لها في أسواق الأرض منصرفاً ولا مفيضاً . لقد سجنها الحرب ، وأبطل حركتها الكساد العام .

هذا شأن ملاك الأرض ومستأجريها ، كبارهم وصغارهم في ذلك بمنزله سواء . فكيف بالأكررة والمنتكسين بكد الأبدان ؟

أما أولاد الفلاحين ، فشخص وأشباه بالية ، تغدو وتروح في أسال بالية ، تكشف من الأبدان أكثر مما تستر ، وتبدى من اللحوم ، أستغفر الله ، بل من العظام والجلود ، أعظم مما تحجب . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

وكيفما كانت الحال ، فانك قل أن ترى الفلاح مع كل ذلك ، متسخطاً أو مهتاج النفس . بل إنك لتراه راضياً برغم حزنه الشديد ! ولعل مرد هذا الرضا إلى أن آماله كلها مجموعة في أرضه . وأرضه لم تخنه ولم تخلف له موعداً . ولقد أقبلت عليه من فنون الغلات بما تقبل به كل عام . فاذا كان يؤس من أثر حصار أو كساد عام ، فذلك ما لا شأن لأرضه به على كل حال . نسأل الله تعالى اللطف بالعباد ، فهو القادر على أن يجعل لنا من هذا الضيق مخرجاً ، ويبدلنا من هذه الشدة فرحاً : « فان مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » ولن يغلب عسر يسرين كما روى عن الرسول الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

بقى ما يظن أن يتأذى به المهاجرون في الريف من منكر الأصوات
ووالله لقد رضينا أن نسمع ، عامة الليل والنهار ، نباح الكلاب ،
وعواء الذئاب ، ولعيب الغراب ، وطنين الذباب ، وما شئت من
نقيق ونهيق ، وثغاء ومواء ، وفحيح وخوار (١) ، على أن تعفى آذاننا
من . . . صفارة الانذار !

(١) النقيق : صوت الضفدع ، النهيق للحمار ، الثغاء للشاة ، المواء للهريرة ،
والفحيح للأفعى ، الخوار للعجل .

أعظم يوم في تاريخ العالم

لا شك عندى فى أن أعظم يوم فى تاريخ العالم على الإطلاق ، هو اليوم الذى هاجر فيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة . فاذا كنت فى حاجة إلى دليل ، فسيطالعك بعد قليل . يرى المستعرض لتاريخ الأديان ودعوة الرسل أنها جازت بمراحل ثلاث ، طوعاً لتطور الانسان من البساطة والغفلة والوحشية إلى أن أصبح كفوّاً للحياة المفكرة المدبرة التى تطلب السمو ، وتنشد السعادة فى ظل الأمن والنظام .

الطور الأول : فى الطور الأول كانت بعثة الرسل مقصورة على الدعوة إلى الايمان بالله ورسوله ، والأمر بأسهات الفضائل ، والنهى عن كبريات الرذائل ، كما كان وعيد المخالفين الكائدين وتعذيبهم وإرسال العبرة بهم بالغاً غاية الرّوعة فى الفتك والعصف والتشكيل . فلقد أهلك الله قوم نوح ، بعد إذ عصوه وتحذوا دعوته ، بإغراقهم أجمعين .

قال تعالى : « حنى إذا جاء أمرنا وفارّ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ

الْقَوْلُ وَمِنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ. وَقَالَ اارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ كَجَرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَهِيَ تَجْرى بِهِمْ فى سَوَاجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ اارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَاوِى إِلَى سَجَلٍ بَعْضُنِى مِنَ الْمَاءِ . قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ يَتْنُهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرَقِينَ . « (١)

وسن هؤلاء المخالفين سن أهلكوا بالريح العاصفة .

قال تعالى : « وأما عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ ، سخَّرها عليهم سبعَ لبالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية . فهل ترى لهم من باقية . « (٢)

وقال تعالى : « كَذَّبَتْ عادٌ فكيف كان عذابى ونُذْرِ . إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرأً فى يومٍ نحس مُسْتَمِرًّا . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخلٍ منقعر . فكيف كان عذابى ونُذْرِ . « (٣)

وأما ثمود فأهلكوا بالصواعى والزلازل .

قال تعالى : « فأخذتهم الرجفةُ فأصبحوا فى دارهم جاثمين . « (٤)

(١) سورة هود . — (٢) الحاقة . — (٣) القمر . — (٤) الاعراف .

وقال تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصبيحة^١ فأصبحوا في ديارهم جانحين . كأن لم يغنوا فيها . » (١)

وقال تعالى : « وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة^٢ وهم ينظرون . » (٢)

أما قوم لوط فأنظروا ماذا أخذوا به من العقاب الشديد .

قال تعالى : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة^٣ من سجيل منضود . مسومة^٤ عند ربك وما هي من الظالمين بعباد . » (٣)

وقال تعالى : « فأخذتهم الصبيحة^٥ مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليهم حجارة^٦ من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين . » (٤)

ونكتفي بهذا القدر اليسير في الاستشهاد بما كان يؤخذ به العصاة الكائدون من ألوان العصف والخسف والتنكيل والتدمير . وقبل أن نتحول إلى الحديث في الطور الثاني نرى من الخير أن ننبه إلى أن انقسام التاريخ إلى مراحل أو أطوار ، ليس معناه أن مرحلة تبدأ من حيث تنتهي سابقتها على الضبط والتحديد ، ولا أن

(١) سورة هود . — (٢) الذاريات . — (٣) هود . — (٤) الحجر .

التطور من حال إلى حال يحدث دفعة واحدة ، بل إن المراحل ليتداخل بعضها في بعض كما أن التطور لا يكون إلا بالتغير من طرفيه جميعاً بالنقص من هذا أو بالزيادة من هذا ، حتى يتلاشى القديم ويحل محله الجديد ، وهكذا . وكذلك يكون التطور في كل شيء في هذا العالم .

الطور الثاني : أما الطور الثاني فمن أظهر مظاهر الترفق بعض الشيء في النذر ، والتخفيف في فنون العقوبات وسعة الدعوة وتبسط التشريع ، سواء في العبادات أو في المعاملات بين الناس . وفي هذا الطور أيضاً كانت تعتمد الدعوة ، بقدر كبير ، على التحدى بالمعجزات حتى لقد انتهى هذا الطور بكف العقوبات وتفرّد المعجزات . أما الترفق في النذر والتخفيف في ألوان العقاب ، فلقد كان هذا التخفيف يتناول الكم أو كيف أو يتناولها جميعاً .

قال الله تعالى : « ولقد أخذنا آلَ فرعونَ بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . »

إلى قوله : « فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقملَ والضفادعَ والدمَ آياتٍ مفصلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجزُ قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجزَ لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجزَ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكتون . » (١)

٣١ أعظم يوم في تاريخ العالم

وقال تعالى : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعونُ مجنونه فغشسيهم من اليم ماغشيم . وأضل فرعون قومه وما هدى . » (١)

فأنت ترى أن ما أصاب آل فرعون من الجذب ونقص الثمرات وما أرسل عليهم من الطوفان والجراد الخ لم يبلغ من الشدة والروع بعض ما يبلغ العصف والدمدمة والحسف والتدمير . أما إغراق فرعون ومن اتبع بنى إسرائيل من جنده فلعصمة الفارين من كيدهم وبطنتهم ، والأمر لا يعدو هنا وقع الأذى على كل حال . على أن عددهم بالنسبة لجمهرة الكافرين الكائدين جد قليل . وأما المعجزات فحسبك منها معجزات موسى عليه السلام إذ ألقي عصاه فإذا هي حية تلقف ما يأفك الساحرون ، وإذ ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، وإذ ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .

وحسبك منها معجزات عيسى عليه السلام .

قال تعالى : « ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله ،

عبد العزيز البشرى

٣٢

وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . « (١)

الطور الثالث : وبعد فان بمعجزات عيسى عليه السلام قد ختم
هذا الضرب من الخوارق التي تجري على أيدي الرسل ، يتحدثون
بها المخالفين المعاندين ، ويثبتون بها أن ما جاءوا به إنما هو من عند
الله . وكيف لا وقد أيدهم منها بما يخالف سنن الكون ونير على
طبائع الخلق !

أما بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ففوق أنها تشارك بعثة عيسى
عليه السلام في تجردها من الأحداث التي مرَّ بك بعض وصفها ،
فلا عصف ولا خسف ، ولا رباح عاصفة ، ولا زلازل مدممة ، ولا
شئ من هذا ولا ما دونه مما بزجج النفوس ويدخل الرّوع على
القلوب . فان معجزة محمد صلى الله عليه وسلم تمتاز بأمرين : الأول
أنها لا خلاف فيها لسنن الكون ولا مغايرة فيها لطبائع المخلوقات .
والثاني أنها باقية مستمرة لا تنقطع على طول الزمان . وقد عرفت
من غير شك أن هذه المعجزة هي « القرآن » .
وكذلك جعلت الدعوة الألوية تتطور وتنمو بتطور الإنسانية
وبموها على الأحقاب .

إذاً لقد نضجت الإنسانية أو أصبحت على وشك النضوج وإذاً

(١) سورة آل عمران .

لقد تجاوز الانسان طور القصر وبلغ الرشد أو أضحى على شرف البلوغ .

لقد أضحى الانسان حقيقةً بأن يرفع عن نفسه الحجر ، وتطلق له حرية التصرف في استنانه مناهج الحياة . إذ قد تهباً له لو فكر وتدبر ، أن يعرف ماينفعه وما يضره ، وما يسيئه في حفاية ومايسره ، وأن يميز بين مايسعده وما يشقيه ، وما يعزه وما يرديه . فاذا اختلط عليه الأمر أو نزعت به العادة إلى الهوى ، نبّه ذهنه ، وحرك فكره ، وضربت له الأمثال ، وأقيمت له الحجة يصول بها العقل كلّ مصال .

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (١)

« أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ . » (٢)

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقْتِ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّطِرٍ . » (٣)

وهذان مثلان مما لا يدركه الحصر مما ورد في القرآن الحكيم .

(١) سورة البقرة . — (٢) الأعراف . — (٣) النازية .

هذه دعوة مجد ، وقد رأيت أن ما سبقها من دعوات الرسل إنما كان مقدمة لها وطريقاً إليها .

هي الدعوة التي تسعى بالإنسانية إلى غاية كمالها من طريق إيقاظ العقل ، والفسح في حرية الفكر ، والتي تسعى بالإنسان إلى غاية سعادته من طريق اعتناق الفضائل والتجرد من الرذائل . فيكظم الشهوة ، والعفة والرحمة ، والإيثار ، تستطيع هذه المجموعة البشرية أن تعيش على الأرض ناعمة بالرغد والدعة والسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . » ولقد دعا مجد صلى الله عليه وسلم أول ما دعا ، أهله وعشيرته من قريش فكذبوه وشاقوه وآذوه وأسرفوا في الكيد له والعنت عليه . وكيف له باستعانتهم على بث دعوته ، ونشر رسالته التي أرسل بها للعالمين ، إذ هم أشد من كفر بها وصد عنها ، وبغض فيها ونفر منها ؟

ولكن يأبي الله إلا أن يتم نوره . فلقد أسلم أهل يثرب وآمنوا بالله ورسوله ، وأعدوا أنفسهم للذباد عن دينه مهما جتسمهم الأمر من التضحية في سبيل الله بالأموال والأنفس والأولاد . هذا شعب قوى بعدده ، قوى ببسالته ، قوى بإيمانه . يدعو الرسول ليتسلم زمامه ، ويتولى قياده ، وبثبت من الاسلام دعامه ، ويرفع أعلامه ، ويبسط في الأرض حكمه وأحكامه . وكذلك يهاجر مجد في سر من معشره العاتين إلى المدينة حيث يعز الله الدين ، ويذل الشرك ، ويفتح الله لنبيه الفتح المبين ، وينصره النصر العزيز .

أعظم يوم في تاريخ العالم ٣٥

وتعلو كلمة الاسلام في العالم ويسود حكمه أقطار الأرض تم
لا يمضي أكثر من قرن ونصف قرن حتى ينشئ بفضل تحكيم العقل
وإطلاق حرية الفكر أزهى حضارة عرفها التاريخ تجود في ظلها
القرائح بأجدى العلوم وأندى الفنون ، مما لا تزال آثاره ، ولو على
أيدي غير أهله ، نابتة على وجه الزمان !
أرجو أن تكون أنت أيضاً قد آمنت بأن يوم الهجرة هو أعظم
يوم في التاريخ .

في الهجرة بين الحق والقوة

قصة ، وهي أضخم قصص الحياة جميعاً ، لأنها تروى أضخم أحداث التاريخ جميعاً . على أنها قصة لم يلفقها الخيال ، ولم يبتكر لها الأبطال ، ولم يخترع لها الوقائع إختراعاً ، ولم يبتدع لها النتائج ابتداءً ، ومع هذا فهي أجمل ما روى أصحاب القصص وأبدع ، وأفخم ما حاك خيال الروائيين وأروع . هي قصة إذا لم تكن من نسج الخيال ، فان الحقيقة فيها قد سمت على محلق الخيال !

هي شئ لولا أنه وقع ، لما صدق أحد أنه يقع ، ولولا أنه كان ، لما ارتاب أحد في أنه لا يمكن أن يكون . ولقد جرت حوادث هذه القصة في صدر القرن السابع ليلاد المسيح عليه السلام . وأما موضوعها فالصراع بين الحق والقوة ، وأماكنها فمكة فيثرب ثم مكة . وأبطالها فمحمد بن عبد الله . وأما أشخاصها فصحبته من ناحية ، وقبائل قريش من ناحية أخرى .

هي قصة طويلة جداً ، فقد استهلكت حوادثها العنيفة الرائعة نيفاً وعشرين سنة . وهي مبسطة مفصلة في كتب التاريخ وفي كتب السير . وما كنت لأطمع ، بالضرورة ، في أن أتى عليها في

مثل هذا المقال . على أن في تلخيص الملخصين لها ، مادتت
المناسبات ، الغنى والكفاية .

على أننى اليوم متعمد بعض مواقفها التى أرى فيها أشد سواطن
العبرة ، وخاصة ما يومئ منها إلى ما يجوز بالعالم فى هذه الأيام .
فلعل فيه قدوة لقوم يتفكرون .

إذاً فلا بد من قتله ، وعلى ذلك اجتمعوا ، لم ينشز منهم على
هذا الرأى أحد .

ثلاث عشرة سنة مضت وهو لا يفتأ يوالى إبداءهم وإضرار
الغيط فى صدورهم بتقريعهم وتسفيه أحلامهم ، وتهاون دينهم ،
والزراية على آلهتهم ، ودعوتهم ، فى غير فتور ولا وناء ، إلى الالتفات
عما وجدوا عليه آباءهم وأباء آبائهم ، مما استولى منهم على مجامع
الشعور ، وملك عليهم أقطار الفكر ، وجرى فى الأعراق مجرى الدم ،
إذ هم قوم غلاظ ، شداد الطبع ، تعميم الأفقة والحفاظ فلا يهتدون
بين يديهما طريقاً !

فلما رأوا أن عمه وكافله قد حذب عليه وقام دونه ، فلم يسلمه
لهم ، مشى رجال من أشرافهم إليه فقالوا : يا فلان إن ابن أخيك
قد سب آمتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فاما أن
تسكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه .

ثم إنهم سشوا إليه مرة أخرى فقالوا له : يا فلان إن لك سناً
وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا فد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ،
وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آباءنا ، وتسفيه أحلامنا ،

في الهجرة

٣٩

وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد
الفریقین ، ثم انصرفوا عنه .

فلما قالوا له هذه المقالة ، بعث إلى ابن أخيه فقال له : يا ابن
أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا
له ، فأبى عليّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق .
فظن هو أنه قد بدا لعمه فيه بدائل ، أنه خاذله ومسلمه ، وأنه
قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال : يا عم ، والله لو وضعوا
الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى
يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته . (١)

نعم ، لقد طالما آذوه ، بعد ذلك ، وأسرفوا في الأذى ، وكادوه
وأسمعوا في السكيد له ، وأذكوا عليه من يسبّه ، وتارة من يؤذيه
في بدنه ، ومن يُلوّن للمستضعفين من صحبه العذاب تلويئاً ، فما
زاده كل ذلك إلا إسماعاً في الدعوة ، وإيغالا في التحدي ، وشدة
الدأب على ما وجه إليهم ، وتقريعهم على انصرافهم عنه ، ونفورهم
منه ، وعدم أخذهم به ، وعلى صدهم عن سبيله .

لقد أعجزهم أمره حقاً ، ولم يغن شيئاً من ذلك كله في كف دعوته
والحد من سعيه ، فكيف الحيلة فيه ، وكيف السبيل إليه ؟

إذاً لم يبق بدٌّ من قتله والخلّاص منه ، على أن قتله ليس بالأمر

(١) رواه ابن إسحاق.

اليسير ، فلرجل ، وإن قام بدعوته فرداً ، أهلٌ وعشيرة ؛ وهؤلاء
الأهل والعشيرة هم في الجبهة من الأمة لجلالة موضعهم ، وشرف
أحسابهم ، وضخامة ماضيهم ، إلى ما لم من عز ومنعة ، وما فيهم من
بأس وقوة . وإذا كانت كثرتهم الكثيرة لم تستجب لدعوته ، ولم
تصغ لدينه ، فإن لهم حفاظاً ، وفيهم عصبية تتعالى بهم عن أن يُقتل
رجلٌ منهم ، مهما يكن سبب قتله وبكن بأس قاتله ، وهم قيام
ينظرون . فهم ، ولا ريب ، آخذون بثأره لا يقتل قاتله وحده ، بل
كل من يقع بين أيديهم من أهله وعشيرته الأقربين والأبعدين . وقد
يتعصب لهذا القبيل قوم ، ويتعصب لهذا القبيل قوم ، فتكون
الفتنة لا يخدم لها ضرام ، أو تأتي على اليابسة والخضراء !
فلتشتترك جميع عشائر الشعب إذاً في قتله واحتمال وتزه ، فلا
يقوى معشره ، مهما يكن لهم من العزة والبأس ، على أن يقاتلوا
الشعب كله ، وكذلك أخرج كل قبيل لقتل البطل ، فتي من أقوى
فتيانهم ، وأشدهم بأساً ، وتواعدوا باب داره إذا كان السحر .
ويحييه الخبر بما ائتمر القوم . ولكن من أين جاءه ؟ هذا
ما لا يعلم به أحد !

ثم يخرج من داره وهم وقوف ، ويسرع إلى التوارى في دار صاحبه
فيفوتهم دركه ، ولو قد أرخى زمام إرادته لشجاعته لثبت لهم وقتلهم ،
فقتل منهم ، على الأقل ، قبل أن يقتل ، فلقد كان أشجع الناس ؛ ومن
كان هذا شأنه لا يهاب الموت ، ولا يخشى من أى ناحية أصابه .
ولكنه يعلم أن له في هذه الحياة مهماً لا يقوم به أحد من العالمين .

في الهجرة

٤١

وتمت بهجرته إلى البلد الذي سبقت كثرة أهله إلى اعتناق ما دعا إليه ، والذي يعلم أنهم معزوه وناصروه ، ومؤيدو دعوته ، مهما يحشمهم من التضحية بالأنفس والأموال .

ولم يمض أكثر من عشر سنين حتى يرى البطل على رأس جيش لجب لا يدرك الطرف آخره ، في طريقه إلى البلد الذي خرج منه ذلك المخرج الرهيب !

وإذا لقم لا يقاتلون ، ولا يجمعون نية على النضج عن الوطن ، ولا الذيادة عن الحريم ؛ بل إنهم ليسلمون ، ويسألون صفحاً كريماً من مالك كريم . فسرعان ما يسبح ويعفو ، ويهيب بالمغلوبين المقضى عليهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ! »

ولقد عرفت أن هذا البطل الأعظم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وبجل وعظم ، وشرف وكرم ، وأما عدوه المقاتل لدعوته ، الصارف بكل حوله من دينه ، فشعب قريش كله . وأنت خير بما لهذا الشعب من قوة وبأس ، ومن أنفة وحفاظ .

وبعد ، فإن من ينظر إلى تلك البداية ، ثم بثب ذهنه إلى هذه النهاية ، ليكاد تتفرق نفسه من الحيرة ، وتطير من العجب كل مطير !

ولكنه الصبر ! الصبر الذي يغذوه الايمان بالحق . وما دام الايمان بالحق قوياً ، فقد هان لقاء أشد الشدائد ، ومعاناة أهول الأهوال . ولا تزال هذه الشدائد ، في قتالها للحق والصبر ، تضعف

عبد العزيز البشرى

٤٢

وتتضاءل ، على الزمن ، رويداً رويداً ، حتى تلقى السلاح ، وتسلم
أمرها لعدوها وأنفها فى الرغام !

ومما يسترعى الانتباه أن الكتاب العزيز لم يحض على خلة قدر
ما حض على الصبر ، فلقد دارت هذه الكلمة ومشتقاتها فيه أكثر
من مائة مرة ، وهذه سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، خير مصداق
لما يدعو إليه القرآن العظيم .

وبعد ، فليت هؤلاء الذين غصب عليهم ، والذين خرجوا
أو أخرجوا ظلماً من ديارهم ، ليتهم يبنون أنفسهم على الصبر ،
ويروضونها على شدة الاحتمال فى سبيل الحق . فى حديث الهجرة
أصدق الخبر ، وفيه أحسن العظات وأبلغ العبر .

٤٣ خواطر تلهمها ذكرى الهجرة

ليس ما بضرب فيه الفلم اليوم بحثاً فامت في الذهن حدوده ،
وبانت طرقه ، واتضح معاله ، واستشرفت مقدمانه لنتائج . إن
هى إلا خواطر تجول بها ذكرى الهجرة الشريفة . هى خواطر تتوالى
على النفس كما توالى مناظر الخيالة (السينما) فى جريدة الأخبار مثلاً .
على أنها ود تجمي بحكم تداعى المعانى ، وبحكم أضعف المناسبات ، وأدنى
الملابسات

وبعد ، فليس من شك فى أن مما يستدعى العجب ، بل مما يكاد
يستهلك كل العجب ، شأن أولئك العرب إلى آخر جاهليهم ، وما صاروا
إليه بعد إسلامهم بيسير من الزمان :

لقد كانوا ، فى جملتهم ، فوماً أميين جهالا ، لم تفتتح عيونهم على
علم ، ولم يتذوقوا فناً ، اللهم إلا فن الكلام ، وهو غير مغن فى قيام
الأم إذا أغنى إلا قليلا .

لقد كانوا جاهليين حقاً لا يرتبطهم بأى لون من ألوان الحضارة
أى سبب ، ولا تنفذ عقولهم إلى شئ مما وراء تلك البوادر التى
يسكنون ، حتى لو اضطربوا فبما يحاورهم من البلاد التى أخذت بحظ
من الحضارة ، بحكم التجارة ونحوها ، رجعوا إلى قوسهم وكأنهم

عبد العزيز البشرى

٤٤

لم يشهدوا شيئاً غريباً من شأنه أن يلفت أنظارهم ، ويحرك أفكارهم ، كأنما غلقت الأذهان وغلقت القلوب ، « فاءنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. » (١) صدق الله العظيم!

على أنهم لم يسلخوا في الإسلام إلا صدرأً يسيراً من الزمن حتى حذقوا علوم من سبقوهم إلى الحضارة وفنونهم ، بل سرعان ما أنشأوا هم علوماً واستحدثوا فنوناً أوفوا بها على حضارة الزمان ! ولا ينبغي في هذا المقام ، أن يذهب عن الفكر أن ما نقل العرب من علوم غيرهم وفنونهم قد طبعوه أولاً بطابع الفكر العربي ، وسووه حتى مرئ في مساع الذوق العربى أبضاً ، وهذا فوق ما وسعوا في آفاق هذه العلوم والفنون ، واستحدثوا فيها من الفضاء التي ذهبت بها إلى أبعد الغابات .

وأنت خير بأنه إنما يبعث على العجب في أمثال هذه الغرائب ؛ هو غفلة الذهن عن وصل الأسباب بالمسببات ، ولهذا قيل : إذا عرف السبب بطل العجب . . .

ففي الحق إن العربى على ما كان فيه بحكم البيئة من الجفاء والانصراف عن إرسال الفكر في شئ من دواعى الحضارة التي يشهد أو نرامى إليه أسرها . . . الخلق أنه — مع هذا — حديد الفطنة ، سليم الطبع ، مستقيم الفطره . فلما جاءه الاسلام ، وهو دين الفطرة ،

(١) سورة الحج .

خواطر تلهمها ذكرى الهجرة

٤٥

أذكى مواهبه ، وحرر فكره ، وأجلى ما كان يرين على قلبه ؛ فإذا إنسان كفى أى كفى ، لا سمي النظر وعلاج جلى العظييات فى الحياة ، وكذلك يرمى طلقاً إلى ابتغاء المجد الحق من كل سبيل ! . . .

ولقد كان من المتعين على مفكرى العرب ، وقد دخلوا فى الاسلام ، أن يكون أبلغ سعيهم ، وأول ما تتقلب فيه أذهانهم ، هو هذا الدين طلباً لحفظ أصوله وتفصيل أحكامه . فجد منهم من جد فى جمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، بطريق الرواية عن الثقات من التابعين أو تابعيهم ، ثم عن الصحابة راوياً بعد راو إلى من سمع منهم بأذنه أو رأى عينه « ففعل النبي صلى الله عليه وسلم وإشارته كذلك من السنة » .

ولقد أفنى جامعوا الحديث أعمارهم فى شدة التحرى والتحقيق والتثبت والتأكيد ، للتمييز بين صحاح الأحاديث وموضوعاتها ، بل للتمييز بين الصحاح ، وتبيين حظ كل منها من القوة طوعاً لحظ روايتها من الثقة والدراية . ثم كان من أثر هذا أن نشأ علم جديد ، هو علم «مصطلح الحديث» ولعله كان من الخير أن يدعى علم «نقد الحديث» . وفى الوقت نفسه اجتهد آخرون فى استنباط الأحكام الشرعية من هذه الأصول الأربعة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ، مهتدين جميعاً بسلامة الفطرة ، وحنه الفطنة ، وصحة التفكير ، ودقة الاحساس ، حتى لقد ارتحلوا — فى هذا الباب — قواعد وقضايا تخلب باختصارها ووضوحها ودقتها أبرع المشرعين . ولأسق طائفة يسيرة منها على جهة التمثيل : الضرورة تقدر بقدرها — الأصل بقاء

ما كان على ما كان — إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإن كنت مدعياً فالدليل — ما جاء على أصله لا يسأل عن علته — لا اجتهد مع النص — الاعتراف حجة قاصرة — اليد دليل الملك — المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً — ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . . . الخ ولعمري لم يكن كل هذا الابداع والابتكار أثراً لدرس مدرس أو تقليب للفكر في كتاب مكتوب ، إن هو كما قلنا من فضل سلامة الفطر ، وحدة الذكاء ، وصحة التفكير .

وإذا كان علماء العرب قد نقلوا بعد ذلك علم انطلق إلى لغتهم عن اليونانية ، فانهم سرعان ما أجالوا في قضايا هذه الأذهان الحادة وأراقوا عليها تلك الأفكار الخصبية ، فابتكروا ما ابتكروا ، واستحدثوا ما شاء الله أن يستحدثوا ، طلباً لوفاء هذا العلم على الغاية من الهداية إلى صحة التفكير ، وابتغاء النتائج الحق من صحاح المقدمات .

ثم لم يكفهم هذا ، فلقد نقلوا عن اليونانية أيضاً علم « آداب البحث والمناظرة » وغاية هذا العلم تنظيم وسائل المجادلة بين المتجادلين ، والتزام كل من الطرفين حدة في الخصام ، وبيان الطرق للإدلاء بحجته ، أو إحداث حجة خصمه . وكذلك تضحى المناظرة مجدية منتجة ، تظهر الحق على الباطل بقيام الحجة الواضحة غير مضطربة بين سفسطة وبهاترة ، أو نقل لموضوع النزاع ، على أن العرب كذلك قد طبعوه بطابعهم ، وأفاضوا عليه من سايق تفكيرهم ، ووصلوه بفنونهم ، وأجروا فيه الأمثلة والشواهد مما يعرض لما يعالجون من العلوم .

خواطر تلهمها ذكرى الهجرة

أما وقد عرضنا للقضايا المسلمة ، وللمنطق ، ولآداب البحث والمناظرة ، فقد حق علينا أن نقف وقفة قصيرة لعلنا نرفه بها عن القارئ بعض الترفيه .

لا غرو علىّ إذا زعمت أن تسعين في المائة ، إن لم أقل تسعة وتسعين في المائة ، من المناقشات والمجادلات التي تدور بيننا ، نحن المصريين ، سواء أكانت باللسان في المجالس الخاصة ، أم بالقلم في الصحف السيارة ، لا يمكن أن تنتهى بالتسليم من أحد المتحاورين . ذلك بأننا ، حتى الكثير من متعلمينا ، قل أن يعنوا في جدهم بترتيب المقدمات المنطقية الترتيب الذي يفضى بها ، في صحيح القياس إلى النتائج الصحيحة . ولقد يدفعنا الحفاظ للنفس ، والرغبة في الفلج والخصم إن تنكر القضايا المسلمة . أما نقل موضوع النزاع ، إذا سطت بنا حجة الخصم ، فهذا ما يقع عندنا بغير حساب !

ودعنا الآن من المجادلات العلمية أو الفنية ، وخذ بنا في ألوان الحوار التي تجرى كل ساعة بين الأصدقاء وغير الأصدقاء .

يقول لك فلان إن فلاناً صنع كميته وكميته مما يتعاطمك ويروحك لضخامته أو لتعذر أسبابه ، فإذا باديته ولو بالشك فيما يزعم ابتدرك بقوله : « وليه لأ ؟ » كأن الأصل أن تضاف إلى الناس الأفعال أو الأقوال ، وعلى المنكر أن يقيم هو الدليل على العكس ، أي العدم أو استحالة الوقوع ، ناسين أبسط القضايا وأوضحها « البيئة على من ادعى ! »

ويقول لك آخر إن فلاناً يرتكب كذا وكذا من المؤثمت

فاذا أنكرت منه هذا القول قال فى غير ورع ظاناً أنه يقيم الحجة عليك : كيف وأنا أقارف معه تلك المؤثبات ؟ وقد فاتته أن الاعتراف حجة قاصرة على النفس ، فاذا أشرك الغير كان دعوى تحتاج إلى دليل !

ولقد تروى ، فى بساطة ، ما انتهى إليك من خبر نشرته إحدى الصحف ، أو جعلت تردده المجالس من أن فلاناً اتهم فى كذا ، فيبادرك رجل من شيعته طبعاً : حضرتك مبسوط من كده ؟ . . . وترى أن الخبر قد التبس على الغيِّ بالأمنية ، اللهم إلا أن يكون فاسد الضمير فاجر النية ! . . .

ومما يضحك ويبكى نقل موضوعات النزاع ، إما فراراً من لزوم الحجة ، أو طلباً للكيد والأذى ، أو جهلاً وشدة غباء .

وأذكر نموذجاً واحداً مما وقع لى فى هذا الباب على جهة التمثيل أيضاً . ولم يكن ثمت موضع نزاع ، بل كان هناك سؤال استحال فى غير موجب إلى نزاع : من بضعة أيام طلبت عيادة طبيب الأسنان ، ليخلع ضرساً ألح على أله ، وورم لى صدغى . . . وبيننا أنا فى غرفة الانتظار ريثما ينتهى الطبیب من علاج من تقدمنى ، إذا رجل حسن السمى ، أنيق البزة ، ويبدأ بالتهجى ، فأردها بأحسن منها . . . وما يكاد يأخذ مجلسه حتى بطارح الحديث كعادتنا نحن المصريين إلى من نعرف ومن لا نعرف . فمادته الحديث على ما بى . فى الأسباب العامة طبعاً . ومن حديثه أدرك أنه رجل مزخرف الثقافة مذوق اللسان ؛ ثم إذا هو يفاجئنى بهذا السؤال : حضرتك من أهل الربف ؟

فأجبتته من فورى : لا يا سيدى ، فأنا مولود فى القاهرة ، وما زالت
موطنى إلى الآن . فرد على فى ثورة عنيفة : ليه هيه العيشة فى
الريف وحشه ؟

لقد ثار ثائرى ، ونهضت لتوى ، وخرجت مسرعاً إلى دارى ،
مؤثراً وجع الضرس وضرباته على هذا اللون من الحوار !
إذاً ، لقد كان على أن أخلق قبل أن أخلق ، وأن أولد قبل
أن أولد ؛ حتى إذا بلغت سن التمييز فى النشأة الأولى ، كان على
القدر ، أن يخبرنى الولادة فى الريف والحضر ، فأختار أول الأمرين ،
ثم أتبحر فى الأثير ، ثم أبعت فى الريف من جديد ! وإلا كنت اسراً
آتماً يستحق اللوم والتأنيب !

وبعد هذه الوقفة المريحة ، أو المتعبة المعنية ؛ نرجع سياقة أخذيث
على اسم الله :

لقد اقترنت عناية السابقين فى الاسلام بعلوم الدين ، بعناية
غيرهم بعلوم اللسان ، من نحو وصرف وأدب وبيان . وذلك لأنها
الوسيلة إلى فهم لباب الدين .

وفى أعقاب هذا أو على الأدق فى أثنائه ، التفت مفكرو العرب
إلى المنطق ، على أنه مما ينظم الفكر وييسر الطرق لاستنباط الأحكام
الشرعية على الوجه الصحيح ، ثم اتجهوا كذلك إلى نقل قوانين
البحث والمناظرة على ما تقدم به الكلام .

لم يمنع اشتغال مفكرى العرب بهذا وهذا وذلك من أن يلتفتوا
إلى علوم الدنيا من رياضة وهندسة وطب وفلك وغيرها . فسرعان

عبد العزيز البشري

٥٠

ما جادوا وما برعوا ، وسرعان ما أجلوا ووسعوا ، وما ابتكروا وما
اخترعوا . . . ولم ينسلخ من الزمن غير يسير بالاضافة إلى أعمار
الأمم ، حتى صارت هذه العلوم إليهم وكادت تقطع صلتها بغيرهم ،
فأصبحوا هم المتحدثين فيها ، والمتحدثين عليها بين أم الأرض جمعاء ،
وكذلك أنشأوا أجمل حضارة وأزكاها في هذا العالم !
فاذا تعاظمتك تلك النهضة في مثل ذلك الزمن ، فان مما يدفع
عنك العجب أنه قد لاقت تلك الفطرة العربية دين الفطرة . . .
دين صاحب الهجرة .

يسر الاسلام

٥١

لقد يملك كثرة الناس العجب من تمام عظمة الاسلام في هذا الصدر اليسير من الزمن ويلوغه ما بلغ في غير عنف ولا مطاولة يكافئان هذا المجد كله ولا معظمه .

ولست الآن بصدد ترديد ما أثر التاريخ ، ولا دون المؤرخون في فنوح الاسلام وانتشاره السريع العجيب في قواصي الأقطار وأدانيها، وما كان لأهله في كل مكان من منعة وعزة وسلطان ، فذلك شيء قد فاضت به الكتب ، واحتفلت بتفصيله الأسفار الضخام ؛ وبحسبي — فيما جردت له هذا الكلام القصير — أن ألفت القارئ إلى أن أمة بادية جاهلة صائلة يكون منها في هذا الزمن ما كان من العرب بفضل الاسلام . هذا فتح ، وهذه سيادة ، وهذا تعمير وتثمين ، وهذه علوم وفنون وصناعات ، وهذه حضارة لا تتعلق بأذيالها أعلى حضارات التاريخ !

لعمري ما هذا كله ؟ وكيف كان ؟ وكيف تأتي بهذه السرعة لدولة الاسلام ؟

اللم إن أوثق يقيني أن مرجع هذا أجمعه إلى ما في هذا الدين من يسر عظيم .

الدين يسر ، وبفضل هذا اليسر كان من دولة الاسلام ما كان !
سنقول : إن الاسلام ما ساد إلا لأنه حق ، وأقول لك : وهل
شمة أيسر من الحق أو أعسر من الباطل ؟ ومتى احتاج الحق في
تجليته إلى عنف أو إلى جهد ؟ إن الباطل هو الذي يحتاج إلى هذا
وهذا ، وقل أن يثبت له معهما قرارا !

وإذا قيل إن الاسلام دين الفطرة ، فمعنى هذا أنه دين اليسر ،
لأن ما جاء على حكم الفطرة لا عسر فيه ولا مشقة . أما ما جاء
على جهة التكلف والتصنع فذلك الذي يقتضى كثيراً أو قليلا من
الجهد والعناء .

الدين يسر ، وإن هذا اليسر ليغمره من جميع أقطاره . أرايت
أيسر من دعوته « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وأى شيء لعمري في هذه الجملة ينشز على الفهم ؛ بل أى شيء
فيها ينعثر فيه الذهن وتضيق عنه ساحة أدنى التفكير ؟

هذا اليسر في هذا الحق الذي لبس وراءه حق ، هو الذي سلك
أقطار الأرض بدعوة الاسلام ، واستفتح لها قلوب الأمم والجماعات
في غير علاج ولا استكراه ؟

هذه الدعوه اليسيرة الواضحة لقد تغنت بنفسها عن العنف
والاضطراب : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (١) .
بل لقد استغنت عن استدراج الناس بفنون الاغراء والاستهواء .

(١) سورة البقرة .

وهذه تكاليف الاسلام ، ما قامت فيها مشقة إلا قامت بازائها رخصة ؛ ولا كان في أحدها على أحد عسر إلا ذل بين يديه طريق العذر ، وهل بعد ذلك اليسر كله يسر ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » ، وقال تعالى في كتابه الكريم : « وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »^(١) صدق الله العظيم .

لم يقتض الاسلام أحداً احتمال ما لا طاقة له باحتماله ، فهذه تكاليفه ، من استطاع القيام بها ، وإلا تخفف منها في حدود أحكام الشرع الكريم ، حتى تكافى طاقته ، ويتسع لها ذرعه ، ولا يتحرج بها وسعه ، مقبولا عذره ، مكفولا عند الله أجره .

ولعل من الخير أن أنبه في هذا المقام إلى شئ حقيق بالانتباه : ذلك بأن من القواعد المسلمة أن الضرورات تبيح المحظورات ، « فمن اضطرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمٌ عليه »^(٢) فالتفريط في غير ضرورة ، والتخفف من أحكام الشرع من غير داع جدى إثم من الآثام . ومن القواعد الأصولية المقررة ، إن الضرورة تقدر بقدرها ، ولا شك بعد هذا في أن تتبع الرخص وتلمس المعاذير إنما هو ضرب من الاحتيال للتهرب من تكاليف الدين وهيئات لا ينطلى على الله محال ! ومن يسر هذا الدين أنه لم يقم بينك وبين ربك أية واسطة .

(١) سورة الحج . — (٢) البقرة .

ولبس من شك في أن ما تستطيع تناوله إلا بواسطة غيرك . فإذا زلت بك القدم ، وقلبك الشيطان في المنكر ، أقبلت على ربك ، وسألته قبول توبتك ، والعفو عما أسلفت من ذنبك ، مطمئناً إلى « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » (١) . ليس بك حاجة إلى من يمهّد بين يديك سبيل المعذرة ، ولا من يعانى لك استخراج العفو والمغفرة .

وبعد ، فإن من يسر هذا الدين شدة تسامحه ، ولا يذهب عنك أن هذا التسامح إنما كان من أبلغ الأسباب في عظمته . لا يدعوك الاسلام إلى كراهة ما يصدر عن مخالفك في الدين لأنه يخالفك في الدين ، بل يدعوك إلى أن تكره منه ما يكره ، وتقر منه ما يجب ويؤثر ، فهو وأخوك المسلم في هذا بمنزلة سواء . ولقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة رومية .

وقال تعالى في كتابه الكريم : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » . (٢)

ولا ريب في أن لهذا ولهذا دلالة كان لها أعظم الآثار في نهضة الاسلام !

لم ينفر المسلمون من مخالفهم في الدين ولا في الجنس ، ولم يحجز بهم تعصب عن مخالطهم والاتصال الوثيق بهم ، والانتفاع بكفائاتهم

(١) سورة الزمر . — (٢) المائدة .

يسر الاسلام

٥٥

والأخذ عنهم . ولم يكذب يستقيم أمر الملك لهم حتى أقبلوا على علوم من سبقوهم فترجموها إلى لغتهم ، وجعلوا يتردونها ويشيعون الأذهان فيها ، ويطبعونها على غرار عقولهم ، ويزيدون فيها ما فتق الرأي والذكاء لهم . كذلك كان شأنهم في الفنون ، فقد حذقوها أتم الحذق ، وبرعوا فيها أعظم البراعة ، وأداروها على أذواقهم ، حتى اتسق لهم منها فن خاص ؛ وناهيك بالفن العربي الذي ما برحت آياته مسطورة على جبين الزمان .

أرجو أن تكون قد اطمأنتت بعد هذا ، إلى أن اليسر في الاسلام ، كان من أبلغ الأسباب في عظمة الاسلام .

في الحروب بماذا كان ينتصر الاسلام

ما وقع حدث من أحداث هذه الحرب ، وخاصة في ألبانيا التي أصبحت معتركا حامى الوطيس ، بين دولة صغيرة ، قليلة العدد ، قليلة العدد ، ضئيلة الموارد كل همها من العيش أن تحظى داخل حدودها بالأمن والسلام ، قاعة باليسير. بما أفادت عليها الطبيعة ، وما يعالجه أبناءها النشيطون من فنون الصناعات ، وما يرجونه إلى أسواق العالم المختلفة من ألوان التجارات ؛ لها من كل أولئك مقنع وليس لها فيما وراء أى مطمع ، فاذا كان لها جيش أو كان لها أسطول فبقدر ما تؤمن الحدود وتمنع الشغور ، ولو إلى حين . أما الطرف الثانى من هذا المعترك فدولة عظيمة ، قوية بعُددها ، قوية بعُددها ، قوية بصناعاتها وبتجاراتها ، قوية بمستعمراتها الواسعة الشاسعة التي ضمنت أرضوها من الكونوز المعدنية ما يغنى في كل شئ من أسباب الحياة القوية الفنية ليس أعز منها في هذا العالم حياة . ومع هذا فاننا نرى أن هذه الدولة الصغيرة الدقيقة في كل شئ ، لا تفتأ تضرب هذه الدولة العظيمة الضخمة في كل شئ ، كلما طلعت الشمس ضربة وتركها كلما غربت الشمس ركلة ، وبين ذلك لا تفتأ في كل ساعة تجرعه

من الصاب والعلقم ما يفرى الحناجر ، ومن الغسلين ما يذيب الأحشاء .
وتلون لها من إهانات ما أجراها مثلاً للخرى على ألسن العالمين .
لعمري ما وقع حدث من هذه الأحداث إلا أذكرني سير العرب
السابقين وأحضرني شأنهم في فتوحهم ومغازيهم . فلم يكن هؤلاء
في الأكثر الأغلب أكثر من عددهم عدداً ، ولم يكونوا كذلك أقوى
منه عدداً ، ولم يفوقوه في تنظيم الجيوش وتنسيق الكتائب ، وتدريب
المكائد ، وإحكام خطط الحرب ، وتدريب وسائل الكر والفر ؛ بل
لقد كانوا أضعف وأهون شأنًا في كل أولئك جميعاً ! ومع هذا فإنهم
ما صاروا إلا صرعوا ولا قارعوا إلا قرعوا ، ولا شدوا إلا ظفروا ،
ولا حملوا إلا قهروا ، ولا بهموا إلا انتصروا ، ففتحت بين أيديهم
أبواب المعاقل ، ومهدت لهم السبل إلى أمنع المدائن ، وحشدت لهم
أضخم المغنم ، واستأسر لهم من المقاتلة أضعاف أضعافهم في يسر ،
يلفت عين الدهر . وكذلك لم تجهد دورة الفلك إلا قرناً واحداً حتى
دانت لهم مناكب الأرض ، وذلت نواحي البر والبحر . (١)

(١) كان يوم اليرموك لا يزيد جيش العرب فيه على سبعة وعشرين ألفاً ،
إذ كان جيش الروم لا يقل عن مائتي ألف مقاتل ، أما حرب القادسية سنة ١٦ هـ ،
فكان جيش العرب بين تسعة آلاف وعشرة ، في حين كان جيش الفرس لا يقل
عن مائة وعشرين ألفاً ، وأما فتح الأندلس سنة ٩٢ فلم يزد جيش المسلمين
الغزاة فيه على بضع مئات من العرب وعشرة آلاف من البربر ، بينما كان عدد
جند العدو لا ينقص عن مائة ألف ، وما ينبغي ذكره هنا أن هذا الفتح العظيم
تم في ثمانية أيام لا أكثر !

بماذا كان ينتصر الاسلام

٥٩

إذاً لم يظفر العرب ، فى حروبهم ، كل هذا الظفر ، ولم يتبها لهم ما دوخوا من البلاد ، وما ملكوا من الأقطار ، وما فتحوها من هذه الفتوح العظيمة فى قواصى الأرض وأدانيها لأنهم كانوا أكثر من عددهم عدداً ، ولا أسمى سلاحاً ، ولا أعلم بفنون الحرب وأخبر بأساليبها ومكايدها ؛ بل لقد علمت أنهم كانوا دائماً دونه فى جميع أولئك بما لا يجوز فيه تشبيه ولا يصح سعه القياس .

وبعد ، فلمعمرى ، ما مشى النصر بين أيديهم أنى قاتلوا فى شرق الأرض وفى غربها ، بالغاً ما بلغ من الضالة عددهم ، وواقعاً حيث وقع من الضعف سلاحهم ، إلا بأسباب ثلاثة :

١ - الإيمان

٢ - الرحمة

٣ - العدل

فالإيمان يبسر على النفس التضحية مهما جلت ، بل لقد يغرى بها ويدفع بها فى المطلب الجسام .

ولا تنس أن من أثر الإيمان بناء النفس على الصبر عند معاناة الشدائد وخوض المكاره ، فان إصابة الغرض الذى بدفع الجهاد إليه إيمانه حقيقة بأن تحم من عزمه ، وتشد من منته ، فلا يعتريه خور ولا خذلان . وأنت خير بأن الصبر هو مفتاح النصر ، وصدق من قال : الشجاعة صبر ساعة ، والأمثلة على هذا مما لا يحيط به الحساب !

وبعد هذا أحسب أن العجب قد أخذ فيك بادی النظر ، من نظم الرحمة والعدل في أسباب الظفر في الحروب والتشكل بالأعداء ، والواقع أنهما قد يكونان أسمى من السيف في كسب الحروب ، وذلك بأن القسوة وغلظة الكبود لا تجدى على المقاتل شيئاً ألبتة ، بل إن شهرته بين مقاتليه بالرفقة إذا تمكن ، والمعداة إذا حكم ، لما يخذلهم عن الاجتهاد في قتاله ، ويشيح فيمن وراءهم قلة الاستحسان لهم وثقل القادرين على القتال عن نجدتهم ، بل لقد يرجون النصر لهذا العدو ليخرجوا من ظلمهم ، وينعموا في ظلال حكم ملائكة الرحمة والرفقة والعدل والإحسان .

وكذلك ساد العرب الدنيا ، وما هداهم إلى هذا إلا دينهم العظيم . . .

والشواهد على هذا في حروب المسلمين مما لا يبلغه كذلك الإحصاء .

وبحسبنا أن نورد في هذا الباب مثلين يسيرين ، أولهما أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، قال في وصاة له لأسامة بن زيد قائد أحد جبوشه ولأصحابه ، وهم مرتحلون إلى الحرب التي وجههم إليها : « لا تخونوا ولا بغدوا ولا تمنلوا (١) ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة . ولا نتبعوا مولياً ، ولا نقعروا نخلاً ولا تحرقوه ،

(١) مثل بالقتيل : نسل به ، كأن يفتأ عينه ، أو يشق بطنه ، أو يقطع عضواً من أعضائه .

ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذيبوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . . الخ »
أسمعت حديثاً في الرحمة بالعدو والمقاتل والرقعة له أبلغ من هذا الحديث ؟

ذلك بأن الإسلام لا يبغي بالحرب كيذا ولا شفاء ضغن ! إنما يبغي بالحرب أعلى المثل : فاما دفع أذى ، وإما بسط حق والخير والفضيلة في هذا العالم .

قال الله تعالى يخاطب رسوله الكريم : « وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » صدق الله العظيم (١) .

ولقد قال تعالى في كتابه العظيم : « إِن اللّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعْظِمُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . » (٢)

وكيف ظنك بدين يأمر بالاحسان حتى في القتل ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة » .
أما التمثيل حتى بالحيوان فقد أغلظ هذا الدين في النهي عنه ، واشتد في الوعيد عليه ؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
نه قال : « من مثل بحيوان فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وتلك كانت سنة الغزاة والفاطحين في صدر الاسلام .
وإن تعجب فعجب أن يكون ذلك أدب الاسلام في عصر كان
من السائغ المألوف فيه سوم المحكومين المقهورين ألوان الخسف
من إهدار الدماء ، وتخريب الدور ، واستصفاء الأموال ، في غير
جرم يقترب ، أو إثم يجترح ، حتى كاد يكون ذلك شرعاً مشروعاً
وواجباً مفروضاً !

وأما المثل الثاني فأجلوه لك في حادثين مأثورين عن عمر بن
الخطاب ، رضى الله عنه ، وهذان الحادثن معروفان شائعان ،
وما كنت لألقى بهما لولا أنه قد اقتضى الالمام بهما نظم المقال ، وأولها
ما حكى من أن جبلة بن الأيهم ، وكان آخر مملوك نبي غسان — أسلم
وخرج إلى مكة ، فلما كان في بعض طوافه داس رجل من فزارة على
طرف ردائه فحل أزراه ، فلطمه جبلة ، فاستدعى الرجل عليه عمر ،
فدعابه وخيره بين أن يترضى الرجل أو يقيد له منه . فقال : يأمر
المؤمنين ، أتقيدته منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : ولكن الاسلام
سوى بينكم !

وأما الحادث الثاني ، فما حكى عن رجل من أهل مصر قدم على
عمر ، فقال : عائد بك يأمر المؤمنين ! فقال رضى الله عنه : عدت
بمعاذ ! فقال : لقد ضرب ولد عمرو بن العاصي ولدى (وكان عمرو
يوثق عامله على مصر) ، فأرسل في طلبه معه ولده واستنقاد من
الولد والوالد جميعاً ؛ ثم أقبل على عمرو وقال : يا عمرو ، بماذا استعبدتم
الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

٦٣ إذا كان ينتصر الاسلام

هذه الأمثلة على قتلها ، تريك مبلغ ما يدعو إليه الاسلام من الرحمة بالمقهور والرقة له ، وإقامة العدل بين الناس ، مهما يكن الفرق بين الظالم والمظلوم ، وأخيراً توطيد الحرية وتوكيدها على أنها حق طبيعي للانسان ، كائناً من كان .

أما الحرب في هذا العصر ، فلقد صارت إلى ما ترى ، وهي إن امتازت بشئ فأبرز ما في وجوه هذا الامتياز أن ضحاياها وصالي حرها من المستأمنين الوادعين ، أصبحوا أكثر كثيراً ممن تجردوا للقتال ، واستنفروا للكفاح والنزال ؛ بل لقد تعدل الموبقات القواصف من الطائرات عمداً عن المساح ومستودعات الذخائر ، وثكنات الجند ، وغير ذلك من أسباب الحرب ، إلى دور المستأمنين ، حيث المرأة ترضع ولدها ، وحيث الرجل الذنى نام ليستجم للعمل من بكرة الصباح إلى غاية النهار الأطول ، سعيّاً على الأم الشبيخة ، والزوج والطفل الثلاث أو الأربع ، وحيث المريض المدنف يتلوى على الجنبين من ألم وعذاب ، لقد تعدل تلك المدرات القواصف إلى هؤلاء عمداً ، وتزلزل عليهم الأرض زلزلة ، وتدمر الدور تدميراً ، فاذا هؤلاء أجزاء تتناثر ، وأشلاء تتطاير ، فمن سلم منهم على الموت ، فليستقبل حياة شراً من الموت .

فاذا جاءك أن الاسلام فتح كل هذا الفتح ، وملك كل هذا الملك ، وانبسط له على وجه الأرض كل هذا السلطان في أقل من قرن واحد ، فان السر لا يعدو ما قدمنا لك من قوة الايمان ، وإشاعة العدل بين الناس ، وإيثار الرقة والرحمة بالانسان وبالحيوان !

وإذا طلعت عليك الأنباء فى كل صباح وكل مساء بأن الجيش
اليونانى الصغير الضئيل لا يفتقر لحظة واحدة عن صفع الجيش
الطليانى الضخم الكثيف باليد ، وركله بالرجل إذ لا يكاد يرى
فيالقه وكتائبه إلا من الأقفاء من انهزام بعد انهزام ؛ إذا طالعتك
الأنباء كل ساعة بهذا فصدق ، وأحل الأمر كله على قوة الايمان بحق
الوطن المعتدى عليه بغير إثم ولا عدوان !
فاذا قال لك قائل ، لقد ذهب عنك ما فعلت القوة القوية من
اجتياح للمالك وقبض على نواحي الشعوب ، واستصفاء لأموال الأمم ،
واستصااص لدمائها واتخاذها عبيداً فقل له : لا تعجل بالحكم ، فان
الله ليملى للظالم ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

كتاب مفتوح

من عمر المختار إلى الماريشال جرياني

عزيزي الماريشال

أكتب إليك هذا وأنا حق واثق من أنك لم تنسني ، بل حق واثق من أنني ، وخاصة في هذه الأيام ، أتمنل لك سواد الليل وبياض النهار . ومهما يكن من أمر ، فإن آخر لقائنا لم يمض عليه من الزمان ما ينسى الصديق عهد الصديق !

أتذكر ، يا عزيزي ، ذلك اليوم الذي جاءوك بي وأنا مقرر في الأصفاد ، فتقدمت إلى أحراسك أن يلقوني في الطائرة التي أسرت بأعدادها لهم لم تقم به طائرة من قبل . وسرعان ما حلقت بي ، تشق أجواز الجو طبقة بعد طبقة حتى كادت تصك وجه الشمس . ثم قذف بي من ذلك الحائق قذف النواة ، لا رحمة ولا إشفاق !

وإن أعجب لشيء ، وإن أفرح بشيء ، فبطيارتكم التي بلغت هذه السرعة الهائلة ، بحيث تحمل المرء من هذه الدنيا فتبلغه جنة عدن فيما دون عشر دقائق !

ولئن عاب أهل الدنيا طيارتكم ، معشر الطليان ، بأنهم لا يحسنون إصابة الأهداف ، لقد اضطرب هذا الحكم عليهم بين الجهل والنجنى

فطيّاروكم أحسن الطيارين تسديداً إلى المرامي وإصابة للأهداف ،
مادامت القذيفة شيخاً في حدود المائة ، والهدف ظهر الصحراء !

عزيزي الماريشال

لقد انعقد إجماع أهل العلم على أن الشجاعة تلازمها الرقة
للضعيف ورحمة من ليس له بالكفاح يدان . وكذلك كان شأنكم ،
يا معشر قادة الجنود ، فانكم لا تؤذون الأسرى وتسرعون إلى مداواة
الجرحى من عدوكم ، كما تداوون جرحاكم سواء بسواء ، وتلقون
الجميع بالبشاشة ، وتعاملونهم بالأكرام . فما بالك قد صنعت بي أنا
السّيخ الفاني ، ذلك الذي لم يسمع بمثله أحد في طول الزمان . هذا
الذي لا ترضى بفعله الحجارة ، لو كانت الحجارة تشعر وتريد .
لقد التمسيت لك وجه العذر ، يا عزيزي الماريشال ، ولا تعجب
لأن ألتمس أنا العذر لك أنت ، فأنني في دار لا نحس فيها حقداً ،
ولا يجد الضغن إلى قلوبنا سبيلا .

ألم يقل الله تعالى في كتابه الكريم : « ونَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ
مِّنْ غِلٍّ . . . » (١) الآية .

وجه العذر ، فيما أرى ، أنكم ، معشر الطليان ، أو معسر
الفاشست ، على الأصح ، وفد جمعتهم العزم على فتح أفريقيا ،

(١) سورة الحجر .

٦٧ من عمر المختار إلى الماريشال جرزباني

لتسنيقذوها من الجهالة ، وتخرجوها إلى نور الحضارة ، وأنتم سلفاً أن تشهدوا العالم على مبلغ ما أحرزتم أنتم من حضارة وعطف على الانسان . وليس من شك ، بعد هذا ، في أن فعلتكم تبيح إنما كانت أصدق نموذج (عينة) لحكمكم إذا ملكتم نواحي الأرض ، وبلغتم سنينكم في استعادة ملك الرومان !

ولعلك ، أيها الماريشال الشجاع جداً ، ساعة تقدمت باعدامي على تلك الصورة ، قدرت أنني لن أتعذب أكثر من دقيقة واحدة ، فإني كنت أجهل مصيري ، حتى إذا ودفوا بي في الجو خفق قلبي خفقة أو اثنتين ثم استشعرت صدمة ، هل علمت خطرة البرق ؟ ثم لم أدر شيئاً ، ولم أحس شيئاً ، حتى رأيتني في الجنة ، بين الصديقين والشهداء . وحسن أولئك رفيقاً .

ولعل هذا مما كان داخلاً في تقديرك أيضاً ، فأبت همته إلا أن تسدي إلى هذا الجميل أجزاك الله عن أعظم الجزاء !

هناك يا صديقي سؤال يضطرب في صدري ولا يجد له متنفساً من جواب : لقد كنت أعلم ، وأنا من أهل الدنيا ، وازددت يقيناً حين صرت إلى الآخرة ، أن السيد المسيح عليه السلام ، كان أكبر مظاهر رسالته الرفق والرحمة ، والمحبة والسلام ، والعفو عن جنى ، والصفح عن أساء . ولقد كان عليه السلام ، أول رسول لم يؤبد بمعجزة من عصف أو خسف ، وإغراق أو دماصة ، أو ريح عاصفة ، أو رجفة فاصفة ، وإنما كان بهي الأكمة والأبرص ويحيى الموتى

بأذن الله . وليس وراء هذه الرحمة رحمة ، وليس أبلغ من هذا في باب العطف على الانسان . فهل من الفضائل المسحوية التي تتشادق بها أنت ومعسرك ، والتي تزعمون أنكم ماشهزتم هذه الحرب على خصوصكم إلا لتسوروها في العالمين — هل من هذه الفضائل أن تمنلوا بشيخ منلى هذا التمثيل ، ونقلوه بصورة لم تعهد في تاريخ النذبيح والتقتيل ؟

لا والله ! لقد برى منكم. المسيح الرحيم النبيل ، وبرئت منكم التوراة والانجيل !

وبعد ، فاعلم ، يا هذا الرجل ، ولعلك الآن أنشأت تعلم ، أعلم أن الله تعالى يمهل ولا يمهل ، وهو للظالمين بالمصاد ، وإنه ليلى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته . ولقد أملى لك وأسهلك . وما أسهلك ولا أملى لك ، إلا ليزيد لك في العقاب ، ويضاعف لك العذاب ، ففسح لك فى الأسلى ، وأدنى منك كرائم المنى ، وقطع ، فى نفسك ، جميع علائق الشك فى أن ستكون الغازى الفاتح الذى يرد لقومه ملك الرومان القديم ، فى غير مسقة ولا جليل ناء ، حتى خلت نفسك كذلك ، وتسلفت الزهو به ، وتقبلت الهناء عليه .

نعم ، لقد أذنت وأذن معسرك ، لا فى بلادكم وحدها ، بل فى جميع رقاع العالم ، بأن مصر والقناة النى نسلکہا بين البحرين ، وأن السودان من قسمكم ، كما أضحت الحبسة والصومال والأرتيريا

من حر ملككم ، لا ينازعكم على ذلك منازع ، ولا يستطيع أن يدافعكم عن شئ منه مدافع . ولقد سكنتم إلى هذا واطمأننتم إليه ، وخلصتم أنكم قد فرغتم من الشغل به . ومالكم تشغلون البال بما حصل فى أيديكم ، ومكنت لكم القوة الساطبة منه تمكيناً ؟ أمهلك الله وقومك وأملى لكم ، حتى بلغتم من حسن الظن بالأيام هذا المدى .

أليس أعداؤكم الانجليز قد خشوا بأسكم فسبقوا إلى إخلاء وجه الصومال لكم ، كما خلوا بينكم وبين السلوم وسيدى برانى ، فاحتلتموها فى غير جهد ولا قتال ؟

إذاً لقد تم الأمر لكم ، فأنتم ولا محالة بالغو قعمارى مناكم فى يسير من الزمان ، حتى لقد واعد كثير من جندكم خطبائهم قضاء شهر العسل ، بعد أسابيع أو بعد أبام ، على ضفة النيل ، والنعيم فى واديه الجميل .

ثم ما فعل الله ، يا ماريشال ، بأمبراطورية الرومان ؟ هذا فرنك ويفل يضربك فى كل نهار ضربة ، فلا يقنع بأن يسترجع منك سيدى برانى والسلوم ، بل إنه لغير على ملككم فى لوبيا ، فنفتح بلادها مدينة بعد مدينة ، ولينولى على حصونها واحداً بعد آخر . ويأسر حامياتها التى حسدت فيلقاً بعد فيلق . ويغمر من المدافع والدبابات والذخائر وسائر آلات الحرب وعتادها ، لو كنتم تعاقدتهم من قبل ، مع المجترة على أن نورده مصانعكم إليها بالثمن العاجل ، لعجزت فى هذه الفترة عنه ، ولم تستطع ، على شدة حاجتها إلى المال ، الوصول إليه !

عبد العزيز البشرى

٧٠

ولقد بلغ من خذلان الله لكم أن تظل طائراتكم ، وهى تعد بالآلاف ، جاثمة فى أفاحيصها (مطاراتها) التى تعد بالمئات ، فى انتظار الطائرات البريطانية التى تصبحها وتسميها كل يوم ، حتى إذا أصلتها ضرباً أو تمزيقاً ، وأوسعنها تدميراً وتحريقاً ، عادت إلى حظائرها وكأنها لم تعان غزواً ، ولم تلاق عدواً !

أفتراك يا ماريشال ، قد تعهدت للانجليز بأن تعينهم على تمرين طياريتهم فى إصابة الأهداف وتسديد المرمى ، فنثرت لهم الطيارات فى كل مطار ، ليتعلموا فيها الرماية فى كل ليل وفى كل نهار؟

ألا خبرنى بعيشك ؟ لماذا حشدت كل هذه الجيوش ؟ وهى لاتضطلع من أعباء الحرب بأكثر من التسليم ! ولماذا أقمت كل تلك الحصون ؟ وهى لم تقم بأكثر من تفتيح الأبواب للغازى المغير ! ولم أرصدت كل هاتيك المويقات القواتك من آلات الحروب ؟ إذ هى لم تصنع أكثر من أن تعد نفسها غنيمة للعدو باردة برود الثلج !

ثم ماذا كنت تصنع أنت ، يا ماريشال ؟

لم يسمع أحد قط أنك قمت بهجمة ، أو تحركت لاتقاء صدمة ، أو أمددت فيلقاً رقيقاً حبله ، أو أنجذت جيشاً انهك حبله !

أتراك قد جئت إلى شمال أفريقيا لتتفرج فى هذه الحرب ، لاشأن لك بوضع خطة ، أو تدير مكيدة ، أو سن منهج ، أو إصدار أمر ، أو المشورة ، ولو ساعة الضيق ، برأى ؟

صدقنى ، يا ماريشال ، فنحن أهل الجنة لا نكذب أبداً صدقنى إذا قلت لك إنك لو كنت ماريشالاً فى رواية مسرحية وجرى فى

أحداثها بعض هذا الذى يجرى فى لوبيا ، لكان لك من الأثر ، فى عالم الحقيقة ، أكثر مما رأى العالم منك فى هذه الحرب ، إذ لم يكن أقل من أن يصدع الماريشال الممثل كرسياً ، أو يكسر طبقاً ؛ أو يمزق ، ولو بأسنانه ، ستاراً !

صدقنى ، يا ماريشال ، أنك لو كان فى موضعك هرة لصارع أوحام للدافع وقارع ، أو طفل لنضح ، أو جدى لنطح !
على أنك لم تصنع شيئاً من ذلك قط يا حضرة الماريشال الغازى الناتج العظيم .

جرزبانى لقد قتلنى مرة واحدة ، وها أنت ذا تذوق أمر ألوان القتل كل يوم عشرين مرة !

ها أنت ذا ، يا سند إيطاليا ، ومعقل آمالها فى ملك روما القديمة لا تفتأ تبوء بالفشل بعد الفشل ، ولا تفيق من لظمة إلا لتلقى لظمة . ولا تجوز بفضيحة إلا لتستقبل فضيحة ، أرايت عذاباً أشد من هذا العذاب ، وعقاباً على الظلم أوجع من هذا العقاب ؟

اللهم إننى لم أكتب إليك هذا شفاء لحقد ، أو بذلاً لضغن ؛ فقد علمت أننا ، معشر أهل الجنة ، لا نحقد ولا نضظغن ، ولكن بسطاً للعظة ، وضرباً للعبرة . وفى الختام ، أرجو ، يا حضرة الماريشال ، أن تنوب عنى فى إزجاء أخلص التهئات إلى صدقك موسولينى قيصر الرومان العظيم !

جنة عدن فى ٢ من المحرم عام ١٣٦٠

[طبق الأصل]

كتاب مفتوح

من جرز ياني إلى القائد السيد عمر المختار

سیدی المختار

السلام عليك ورحمة الله ، ولا شك أن هذا إخبار لا دعاء ،
فأنت ، من مشواك في الجنة ، في رحمة دونها كل رحمة ، وفي سلام
ليس يعدله سلام .

وإني أشكرك شكراً جليلاً على كتابك الذي فرضت لي فيه
ضميراً ؛ إذ ظننت أنني أتمتلك في مسائي وفي صباحي ، وفي غدوي
وفي رواحي ، بما أسلفت إليك ، وما أجمعت عليك . إذ الواقع أنك
لم ترد لي على خاطر ، ولم تسنح لي قط في بال ، اللهم
إلا ساعة فضضت كتابك ، وأزلقت عيني إلى توفيعك . في هذه
اللحظة ذكرت لك لأول مرة ، وذكرت ما كان مني إليك .

على أني جد مشغول عن مثل هذا الذي كان مني لك ولغيرك
من تمكنا من نواصيرهم ، وسلطتنا القوة عليهم . مشغول عن هذا
كله بالجزع على ما كان إلى الآن ، والهول والذعر مما يكون بعد
الآن .

ولقد تكشفت لنا ، نحن قادة الفاشست ، في ميادين الحرب ،

والسياسة جميعاً ، ذلك الحقائق القاسية الأليمة بعد طول احتجاب . ومن هذه الحقائق أننا لم نخلق لحرب ولا لقتال ، بل لقد عوضنا عن هذا بما طبعنا عليه من الفن الجميل ، وما رزقنا من نصيب فيه جليل ، فنحن أدق الناس إذ أحفرنا أو صورنا ، ونحن أجود الخلق إذا غنينا أو عرفنا ، وأبرع العالمين إذا رقصنا أو قصفنا ، وأسهرهم وعدنا فأخلفنا ؛ وما لنا وراء ذلك بالحرب ولا بغير الحرب يدان !

على أن الشيطان زين لنا الفتح والاستعمار ، ويسر لأنفسنا الحرب في سبيلهما . وقد وفى ، بآدى' الرأى ، بعهده ، وبر بوعده ، ففادنا أولاً إلى بلاد لا يزال أهلها يعيشون عيش الحيوان ، ولا يزال كثير منهم بسكن الغابات كما يسكنها الحيوان ، ولا يأكلون إلا مما يأكل هذا الحيوان . أما اللباس ، إن كان لابد من لباس ، فشقة توارى السوءة ، وأما السلاح فسيوف أو حراب ، إن لم يستغن عنها بالمخالب والأنياب !

وقد صبحنا هؤلاء بما عندنا من كل فانك فاصف ، ومدمدم عاصف وبكل ما يتطاير بالحجم ، ويرمى عزيفه بالصمم . فسرعان ماسلموا واستكانوا ، وسرعان ماخضعوا ودانوا . وبعد لأى أطبقنا على طرابلس ، ثم مايلها من صحراء لوبيا ، حيث القوم أهل بادية ، السعير طعامهم ، والخيام مشواهم ومنامهم . وأما مسعدهم من السلاح فظي السبوف وأسنة الرماح . فاذا كان فى أيدي بعضهم شئ من البنادق القديمة ، فما لا غناء فيه ولا أضحت له قيمة . وأما مركبهم

من جززياني إلى القائد السيد عمر المختار ٧٥

إذا اضطربوا في صحارهم ، فالابل المهزولة تحمل معهم متاعهم وزادهم ، وعدتهم وعتادهم . لقد أطبقنا على هؤلاء ثم على هؤلاء ، وصببنا عليهم من النار ما لا نبت له الحديد المصفى (الفولاذ) فكيف بالإنسان !

ثم رمينا أهل هذه البلاد بكل متعطل في بلادنا ومن لا يجد فيها إلى القوب سبيلا ، وكلما شام هؤلاء المرتزفون رفعة من الأرض تنطف ولو بالنزر من الماء ، وتخرج حتى الرقيق من النبات ، أجلوا أولئك المساكين عنها ودعوهم إلى بطن الصحراء !

ثم بعد سنين غير طوال ، أغرنا على معاهدتنا الحبشة وزميلتنا في عصبة الأمم . وسلطنا على أهلها كل ما أخرج العلم من الفاتكات المدرسات ، ولم نتألم من أن ننضح على العدو الغاز السام ، وغاز الخردل ، إذ هم لا يعلمون من أمر ذلك شيئاً ، ولا يدرون من أسباب الوفاة منه والعلاج من أذاه كبيراً ، ولا قليلاً .

وكذلك أصبح لنا إمبراطورية ، ولكنها ليست كل إمبراطورية الرومان !

وأخيراً فهذه جارة صغيرة ، تشرف علينا ونسرف عليها عبر البلطيق . ولقد آسأناها من كل غارة ، وكفلنا لها السلامة من بغى أبة جارة . حتى إذا سكنت واطمأنت بهذا العهد ، جعلنا نتربص بها الغفلة ، ونرتصد للغرة ، حتى إذا أخذ عينها الكرى ، أخذناها بجبوسنا وأساطيلنا وطياراتنا بيئاتاً ، فهبت مذعورة لا تدرى أبس المفر ، ولا كيف السبيل إلى النجاة ! ولعمري لم نرحم حتى

الفساء (١) ولم نشفق على وليدها الذى لم يفتح عينه على الدنيا
إلا منذ ليلة واحدة ونهار !

إذاً فنحن دولة عظيمة ، لا تقل عن أعظم دول الأرض فى البأس
والسلطان . فليت شعرى لماذا لا ننضى السيف ، ونمضى ، على اسم
الامبراطورية الرومانية ، غازين فاتحين ، ذات الشمال وذات اليمين ؟
وترى ما الذى يعوزنا لنكون كذلك ؟ وهذه جيوشنا المدربة
على خير الأساليب العسكرية ، تعد بالملايين . وقد زودت بأ كفى
الأسلحة وأمضاها فى الحروب الحديثة . وهذه طياراتنا إن شئنا
حجبنا بها وجه الشمس عن العالم ، وهذه أساطيلنا تغطى ثبح البحار ،
غادية رائحة ، لا تخشى صولة ولا نهاب عادية ، حتى لمد أضحى البحر
المنوسط ، بفضلها ، بحيرة إيطالية ، لا يدافعنا عن سلطاننا فيها إلس
ولاً جان !

تم هذه حلل ماربشالات وجنرالات وأمبرالات وكولونيات
الخ ، قد « فصلها » خباطونا المهرة « بفصلا » بدعاً . ومن العجيب
أنها حين أفرغ على فادننا فى البر والبحر والهواء ، بدوا فيها وكأنهم
لبوث الغاب ، قد سلخوا الأعمار فى الصبال والضراب . وشقوا
الصفوف ، وتغدوا فى الجلى سوافع الحتوف . فأوقعوا بالعدو وهزموا ،
أو رضوا بالموب وما سلموا !

(١) راد بالفساء ملكة الباتيا التى فرت مع زوجها وولدها وهى على
هذه الحال !

وهذه فرنسا فلنضربها الضربة الفاصمة ، ولو من الخلف ، واوفى ساعة قدر عليها الانهيار ، فذلك فى تحقيق الحلم الرومانى لاميزان له ولا عيار .

إذاً فهلم يا ماريشالات ، وهلم يا جنرالات ، وهلم يا أميرات ، وهلم يا سائر الضباط ، وهلم يا رجالات الفاشست ، هبوا هباً للقتال ، وامضوا للكفاح والنضال .

نعم إذا فرنسا تستط سقط البقلة الذابلة ، وما جرد أصحابنا سيفاً ولا شرعوا رحماً . وإذا فلقد عقد لهم النصر على فرنسا العظيمة ، وحققت لهم المغائم التى لا يبلغها حصر ، وكفلت لهم تونس والجزائر ، جزاء هذا النصر الباهر ! ولا تنس أن تونس والجزائر نقعان فى رقعة الحلم الرومانى العظيم !

وهذه اليونان على رمية حجر من مسنعمردنا الجديده ألبانيا ، ولا شك أن اكتساحها بجيشنا الباسل ، وسلاحنا القاتل ، وعدتنا المجلجلة ، والات حرنا المزلزلة ، لا يستهلك أكثر من أسبوع واحد من عمر الزمن . ولكى نقطع عليها سبيل العذر ، فلنندرها فى السحر أنها إن لم تحبنا دهنها عند الفجر !

أما باقى الحلم الرومانى فقد عقد الأمل فى تخفيفه بسبب داعبكم الماريشال جرزيانى وعسكره الذى لم يتبها منله عدة وعدداً لا للأسكندر الأكبر ، ولا لهنيبال ، ولا لبونا برب . إذاً فلنفتح مصر حالا ، وليسلك منها فوراً إلى السودان .

والملقى مع دوف داوست في حدود الحبسة بمشبهة الدوتشي
لا بمشيئة الله !

شم ماذا بعد هذا ؟

لقد أثبت هذه اليونان الصغيرة الضعيفة لا نفياً تولنا نكبة بعد
نكبة ، ولا نألونا كل يوم مائة ضربة وضربة . وكأنا لقطت الأرحام
في بلادنا الأولاد ليسأسروا لجنودهم ، وكأنا قامت مصانعنا هذه
السنين ذات العدد على صب المدافع الثقيلة والخفيفة ، وصنع
الدبابات والسيارات وسائر أسباب الحرب ، لنكون مغام لهم ، وهذه
ألبانيا تسلم لهم أسنع مافيها من حصون ومعامل ، كانت أفوى درع
لن وراءها من الكتائب والجحافل !

أما أفريقيا ، وما أدراك ما أفريقيا ! أفريقيا ، واخيبتاه ، هي
مناط الحلم العظيم .

فأما شها ، فهذه لوبيا فد طارت ، وهذه بنى غازى قد طاحت ،
وهذا طريق النصر الذى عبدناه لاجتياح مصر ، لقد أضحي لنا طريق
الهزيمة والفرار ! وربما سلمت طرابلس قبل أن يصل إليك هذا
الكتاب . وكذلك يخرج عن أيدينا آخر معقل على شط بحر الروم ،
أو بحر الانجليز ، لا بحر الطليان على كل حال !

وأما ملكا الكبير فى الأريتريا والحبسة والصوبال ، فهذا
وبفل ، الجنرال بالكفاية ، لا بالبذلة العسكرية . هل جاء نبأ
النمر الجائع ، وفد تمكن من فريسة يحمل لها الشر ويضمرا الاضطعان ؟

من جرياني إلى القائد السيد عمر المختار ٧٩

هاهو ذا بقر بطنها بمخلبه ، وينهش رأسها بأنيبه . وتارة يضغط
كتفها حتى نلتقي أسنانه ، ويلعق عظمها حتى يدمى لسانه .
وكذلك يمزق ويفل ملكنا كل هذا التمزيق ، أو شرا من هذا
التمزيق !

أرأيت ، يا سيدى المختار ، أن الحلم الرومانى إنما كان حقاً ؟
على أننا نهب اليوم من نومنا نيك أهول هبوب !
نقول لى فى كتابك : إنك لو كنت ماريشالا فى رواية تمثيلية ،
لكسرت ، على الأقل ، طبفاً ، أو صعدت كرسياً ، أو قرضت بأسنانك
ستاراً ! ألا فاعلم ، يا سيدى ، أن الله قد عقد لسانى فى هذه الحرب ،
ورمى يدى بالستل . وهيهات الفعل أو القول لأنسل اليد معقود
اللسان !

وأخيراً ، فإذا كانت هذه الأهوال الكارثة قد علمتنا ،
نحن معشر الفاشست ، شيئاً فقد علمتنا شيئاً واحداً ، هو أن
الحرب ليست جيوشاً تزم الأفق ، ولو زودت بجميع الفواتك
المهلكات ، من مدافع وبنادق ودبابات . ولا هى أساطيل تزحم
نواصى البحار . ولا هى طيارات تسد جو السماء . إنما الحرب
أولا وأخيراً هى . . . رجال !

ولقد أذكرنى هذا ما روى عن ذلك السجاع العربى -- يعنى
عمرو بن معدكرب -- وقد تهادن ابن الخطاب سيقه ، يعنى
الصمصامة ، وقد طارت لها نسرة عظيمة . فقال له أمير المؤمنين :
لقد رأيت الصمصامة ولكنك لم تر المد الى يضرب بها !

سيدي المختار

لى إلك حاجة لبس فضاؤها عليك بالأمر العسير . تلك بأنكم
أهل دار سؤالهم مفضى ، ودعاؤهم مستجاب . فأدع ربك أن يفضنى
ولكن على فراشى ، فأننى لا أرى من العدل أن أموت كما يموت
الجندى فى ميدان القتال !

وإذا نفضلت وكتبت إلى ، فعنوانى الجديد : وادى لظى -
جهنم . يحفظ بشباك البوستة .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص

١٧ من يناير سنة ١٩٤١

جرزبانى

[ترجمة طبق الأصل]

رمضان

أدركنا رمضان وأهل مصر يستصبحون بالشمع ، إلى أن طغى عليه اتخاذ الكيوسين . ثم نحن هؤلاء اليوم نستضيء بالكيوسين وبالغاز والكهرباء ، فكيف كان حظ رمضان من الأضواء والأنوار في ذلك الزمان . وكيف كان حظه منهما في هذا العام ؟

لقد كانت القاهرة والاسكندرية وسواهما من الخواضر الكبرى تسنحيل ، إذا جن الليل في رمضان كتلة من النور . النور في أفنية الدور ، وفي غرفها وحجراتها ، وعلى رؤوس الأبواب . ثم في الشوارع من المصابيح العامة ، ومن المصابيح التي يضطرب بها الأولاد صبية وصبايا ، وأولئك يغنون : « باسادلوك ، يا وردة ، في السوق ، وباعوك ، يا وردة » الخ . وهؤلاء يغنين : « وحوى ، وحوى ، إياحة ، بنت السلطان ، إياحة ، لابس القفطان » الخ .

ولا تنس أن السيدات كن إذا برزن إلى الطريق في رمضان لزيارة الأهل والصدقات سعين وبين أيديهن الخدم يحملون المصابيح الكبيرة يتألق كل منها بطائفة من الشموع ، فتزيد الطريق نورا على نور !

أما نوافذ المناظر فمفتحة ، نبعث منها نور المصاييح ، كما ينبعث منها النور الأعظم ، أعنى ترتيل القرآن الكريم . ولا تنس حظ المساجد الكبيرة ، على وجه خاص ، من ذلك النور والاشراق في طرفي الليل جميعاً ، ففي صدر الليل صلاة العشاء ، ثم صلاة التراويح ثم تلك الأناشيد البدعة التي يتغنى بها المؤذنون فرادى وجاعات . فاذا كان السحر ، فتحت أبواب المساجد وأضيئت فيها الثريات ، وأقبل عليها الناس بعد الفراغ من سحورهم ، فانتظموا في حلق يستمعون إلى دروس العلماء في تفسير كتاب الله ، وفي حديث رسول الله ، وفي أحكام الشرع الحكيم . حتى إذا قال العلماء : « والله أعلم » أذاناً بختام الدرس ، أسرع الناس فانتظموا صفوفاً ، مولين وجوههم شطر الدكة في بهرة المسجد ، ليسمعوا صوت أشهر قارئ في الحى . وناهيك بالشيخ حنفى برعى في مسجد السيدة فاطمة النبوية ، وبالشيخ أحمد ندا في مسجد السيدة زينب ، رضى الله عن السدتين الكريمتين ، ورحم الشيخين العظيمين !

ومادام حديث رمضان قد اسدرجنى إلى ذكر الشيخ أحمد ندا فلا بد لى من أن أقول فيه كلمة (١) .

لقد ولدت في حى السيدة زينب ، وسلخت فيه مدة الفتوة ، وصدرت من سنن الشباب ، ولست أذكر أننى ، من عهد الصبا تخلفت في ليلة من ليالى رمضان ، إذا كان السحر ، عن طلب مسجد

(١) للكاتب مقال طويل عن الشيخ ندا نشر في جريدة « الأهرام » إثر وفاته ، ثم طبع في الجزء الثانى من كتاب « المختار » للكاتب .

رمضان

٨٣

السيدة زينب رضى الله عنها ، أستمع أولاً إلى درس الحديث من أستاذنا العلامة الجليل الشيخ محمد السالم الوطى ، عليه رحمة الله . حتى إذا فرغ منه فى الوقت المقسوم ، استوى الشيخ ندا على الدكة ، وأنشأ يقرأ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . طه ، مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
لِنُنْشِقِيَ ، إِلَّا نَذْكُرَكَ لِمَنْ يُحِبُّنِي . . . » (١)

وقد انصفل بقراءة الليل صوته ، وحلا نبره ، وسلس له منه ما كان جامعاً ، ولان ما كان فى أول الليل عاصباً ، وأطلقه فى آى السورة الكريمة أبيض ناصعاً كأنما صبغ من ذوب الفضة ، أو كأنما اعتصر من صفحة البدر ليلة تمامه ، لقد أسمعته فى سورة طه كل ليلة ، وفى كل ليلة يغفل إلى أن جبريل ينزل من جديد ، بسورة طه على محمد ، صلى الله عليه وسلم ! وهو يجول فى فنون النغم فارساً خلا من هيئته الميدان ، وتوارى الحكمة خشية الضراب والطعان ، ولا يزال كذلك حتى بملاء الأذان طرباً ، وبشع فى النفوس ما شاء الله أن بشيع من لذة وأريحية وفرح حتى إذا كان من مطلع الفجر على دقائق ، نهض فوقف على الدكة ، وصاح فى مقام الست بأعلى صوته : « يَا أُمّة خَيْرِ الْأُمَمِ ، ومصباح الظلام ، ورسول الله الملك العلم العلام . تقبل الله منا ومنكم الصيام والقيام وصالح الأعمال . »

(١) سورة طه .

وهنا يطمئن الشيخ اطمئنانة قصيره ، أرجو ألا تحسبها استراحة من ذلك الجهد العنيف ، وإنما هي استجمام للجهد الأعنف . أستغفر الله ، أرأيت إلى الليث كيف يجتمع للوثاب ؟ وكذلك كان الشيخ عليه رحمة الله . فسرعان ما تراه قد وقف على أصابع رجله كأنه يريد أن يطول ما لا يطاق ، ويستأنف الدعاء : « وأدخلنا وإياكم الجنة » . فاذا صارت إلى حلقة كلمة « إياكم » يجعل يرتفع في مد « الياء » ثم يرتفع ، ثم يرتفع ، ثم يرتفع ، متحدياً ما رسم أصحاب الفن لنهايات الأصوات في سموها ، إذ الناس شاخصون بأبصارهم إلى السماء لينظروا مشدوهين إلى أى مدى يبلغ الشيخ ، حتى إذا جاز هذه الطبقات جميعاً ، وبلغ « الجنة » ، زر حلقة على نونها فعصرها عصرأ شديداً ، وكأنه لا يتكلف في هذا الجهد المهول شيئاً . حتى إذا بلغ هذا المدى خيل إلى الناس أنهم والمسجد الذى يضمهم بأرضه وسماؤه ، وعمده ودككه ، ومنبره وسفائيره ، قد ارتفعوا كتلة واحدة حتى وصلوا إلى جنة عدن ، ونالوا أعظم ما ينال مؤمن من الرضوان !

ثم يهوى من فوره إلى القرار فيقول : « بمنه وكرمه وجوده ، دار السلام بسلام » ثم يعود إلى محلقة فيصيح : « طلع الفجر ! » الله أكبر ! الله أكبر ! ماذا صنعت لعمرى أبها الشيخ ؟ لقد رن رنة ملأت الآفاق جمعاً ، حتى لو أنه أطلقها فى غسق الليل لانفجر من حلقة الفجر ، ولحن على المؤمنين أن يخفوا لصلاة الصبح ، وما شاء الله كان !

رمضان

٨٥

ثم هتف في صوت هادى وادع : « فاستقبلوا الآن واستمعوا
الأذان بعده . . . » ثم أذن للصلاة . . .

هذه بعض الأنوار التي كانت تموج فيها ليالى رمضان حساً ومعنى ،
ولست أحب أن أقارن بين ما كان يكون في ذلك الزمان ، وبين
ما صارت إليه ليالى رمضان في هذا الزمان . إنما قصدت إلى العبرة
في المقارنة بين أضواء ليالى رمضان في عصر الشمع والكيروسين وبين
لياليه في هذا العام ، أى في عصر الغاز والكيروسين والكهرباء .
لا يخيم الليل حتى بكاد يستحيل ما بين آفاق الأرض منجا من
مناجم الفحم ، ظلمة وسواد ، وعالم كأنما قد غط في المداد ، لاعلان
أبشع ألوان الحداد .

« ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْهُ
يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ . » (١)
صدق الله العظيم .

وهذا فوق عواء الصفارة ، إيذاناً بمقدم الغارة .

وبعد ، فهذا ما صنعت هذه الحرب ، وهو على نفعه كأهون
ما تتبلى به الحروب غير المقاتلين في هذا الزمان .

(١) سورة النور .

على أننا لا ينبغي أن نبئس بمجرى القدر في هذا الشهر العظيم ،
فهو شهر الصيام ، والصيام كف النفس عن الطعام والشراب ،
أى عن غذاء الحياة بعد التنفس في الهواء . وذلك ، والله أعلم ،
ابتلاء للمؤمنين ، وامتحان لبلوغ جهدهم واحتلهم في طاعة الله ،
وتعويدهم الصبر على معاناة المشاق في هذه الحياة ، فلا يفسدهم
طول الترف والتقلب في المتاع والاسترسال في معاطاة اللذائذ ، فان
هذا العيش أدعى إلى تكسر النفوس ، واسترخاء العزائم وعدم
القدرة على احتمال الشدائد ، وإن أمة يصير بها الأمن والرخاء
إلى هذا المصير ، لحقيقة بالتقلص والضمور فالانقراض ، والعياذ بالله !
ونحن ، ذياداً عن الشرف والاستقلال والحربة ، قد نلقى المشاق
وأكثر من المشاق ، فمن الخير لنا ، لو تدبرنا ، أن نمرن النفس من
الآن في خوض المشاق ومعاناة الشدائد ، حتى إذا كان يوم الردع ،
لا أذن الله ، لا قبناه في رشد وعزم وصدق يقين :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَفْسٍ مِنَ
الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالنَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ .
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ . » (١) صدق الله العظيم .

سعد^٣ الرجل

ولست أعنى بالرجل من ليس امرأة ولا غلاماً أو فتاة . ولست أعنى بالرجل كل من يضعون هذه الألوان من الثياب النى يمتازون بها عن النساء فى كل مكان . إنما أعنى بالرجل ذلك الكفء لأن يحمل هذا الاسم الضخم ، هذا الاسم النادر فى ضواحي الزمان .

إنما أعنى بالرجل ، ذلك الواصل بوجوده ، المؤمن برجولته ، المتكى على نفسه ، الذى لا يسمع إلا بأذنه ، ولا يرى إلا بعينه ، ولا يفكر إلا بعقله ولا يمشى فى الأمر ، إذا مضى ، إلا بوحى من سلطان العقل والضمير !

وأخيراً فالما أعنى بالرجل ، ذلك الذى لا نتجاوز عن رجوله لأى غرض ، ولا ينزل عن سلطان نفسه لأى اعتبار . بل إنه ليضى لوجهه طلقاً ، ولو كان صفاً وحده ، والناس جمعاً بازائه صفاً آخر . وكذلك كان سعد زغلول . لقد كان ، رحمه الله عليه ، رجلاً كل الرجل كان رجلاً بأضنى معانى هذه الكلمة . فأصبح من حقه أن نقسح له مكان فى أعلى جبهة التاريخ .

وبعد ، فليست الرجولة شيئاً ندركه بالكسب ، أو هى مما بضمفبه الناس على المرء ، إنما هى غريزة كسائر الغرائز يفطر الله عليها من

يشاء من خلقه ، فهي من نفسه الباطنية بموضع جوارحه الظاهرة ،
 ما له في وجودها ونشأتها رأى ولا خيار !
 نعم ، لقد تنمو هذه الغريزة وتشتد بطول المعالجة والمراس ،
 ومعاناة الصعاب ، وسواجهة شدائد الحياة ، لقد يكون الأسر كذلك
 ولكنها ، كما قلت ، لا تنال بالكسب ، ولا تفعل بالحجل ،
 ولا تكون بعد أن لم تكن ، ولا يسبغها الناس ، ولم يأذن بها الله !
 ولقد كان سعد زغلول رجلاً بأوسع ما يتراى إليه الذهن في معنى
 هذه الكلمة ، ولقد تجلّت فيه هذه الرجولة من أول نشأته إلى غاية
 حياته . ولا محيص من أن تكون الأسر كذلك ، اللهم إلا أن يتبدل
 الخلق ، ويحول الطبع ، وتنصل الغرائز نصول الخضاب . وهذا
 في سنة الكون مما تنصل بالحوال !

لم أعرف شيئاً عن نشأة هذا الرجل في الكتاب ؛ ولكنى أعرف
 غير قليل عن نشأته في الأزهر ، وما أعرفه ، في هذا الباب ، فرواية
 عن لداته وقرنائه الذين لا يسوه وعابشوه ، وانتظموا معه في خلق
 الدروس ، وذاكروه في العلوم صدر الليل وأعقاب النهار . وهم ،
 ولا ريب ، ثقات عدول . وقد وكّد النقة برواياتهم ما شهدت بنفسى ،
 بعد ذلك ، أيام كان بواتينى الحظ بمنهود مجالس هذا الرجل العظيم .
 وقبل أن أعرض لرجولة سعد طالباً في الأزهر ، أحب أن أقرر
 شيئاً لعله ينفع في هذا المقام وغير هذا المقام : ذلك بأن جمهرة الناس ،
 في كل مكان ، درجت على أن تجرى أحكاماً معينة على قضايا معينة ،

سعد الرجل

٨٩

لا ينحرفون بها عنها ذات اليين ولا ذات الشمال ، ولا يجادلون فيها ألبتة ، ولا يرونها موضع الجدل ، كما نشأوا على عادات وتقاليد تنزل بعضها من نفوسهم منزل القديس ، على أنهم لم يعتنقوها ويلتزموها عن تدبير أو تفكير . وإنما اتخذوها وحرصوا عليها الحرص الشديد ، لأن من تقدمهم ومن حولهم قد اتخذوها وحرصوا عليها الحرص الشديد ، وتلك القضايا تدعى ، في عرف أهل العلم ، بالمسلمات . وناهيك بأهل الأزهر خاصة ، في التسليم بهذه المسلمات ! على أن رجولة سعد الطالب الأزهرى ، أثبت عليه أن يخضع ، بادی الرأي ، لما يخضع له من حوله ، ويسلم بما يسلم به من يأخذ العلم معهم ، ومن يأخذ العلم عنهم . فجعل بناقش كل قضية تعرض له من قضايا العلم ، سواء منها المسلمات وغير المسلمات . ويحيل فيها الذهن الحر لم بقيده قيد ، ولم يحد من جولاته ، في العلل والأسباب ، حد . وهكذا حتى يخرج له الحكم الذى هداه إليه البحث والتدبير ، وهكذا كان سعد من المتل الأولى في الاتكاء على الذهن أولا ، ثم في حرية النظر والتفكير ، ثم في الجهد بما يعتقده هو لا بما يعتقد غيره من العالمين .

ولست أسك في أن هذه الرجولة ، وإن شئت قلت هذه الألمعية ، أو قلب هذه الحرية التى طبعه الله عليها ، هى التى عدلت به إلى دروس السيد جمال الدين . وكذلك لست أشك في أنه لقي بهذا وبهذا فى مطلع حياته عنتاً كبيراً ، على أن هنا العنف لم يثنه قط عن وضع السبيل ،

ولا شك عندى أيضاً فى أن هذا : طول النظر ، وتقليب الذهن ، وإثارة المناقشة فيما اطمأنت إليه جمهرة الناس واعتنقته ، يظهر الغيب ، هو الذى قوى روح الجدل فيه ، حتى بلغ منه غاية الغاية . فلقد كان سعد ، رحمة الله عليه ، أحد الناس قولاً وأسطاهم فى الحوار حجة . وهنا لا أجد على حرجاً فى رواية نكتة طريفة عن سعد ، فلقد كان رحمه الله ، يحب النكتة فى موضعها ، ويرتاح إليها فى مقامها ، ويرسلها جزلة نافذة ، حتى وهو فى أحد سور الخطاب !

حدثنى المرحوم محمد باشا صالح (المستشار السابق فى محكمة الاستئناف وكان من لدات سعد الذين يحضر دروس الأشياخ معهم ، ويستذكرها وإياهم ، قال وعرض ذكر سعد وشده جدله ، فقلت له ذات يوم : يا شيخ سعد ! إن هذه المناقشات الكثيرة تضيع من وقتنا ، ونستنفد قدراً كبيراً من جهدنا . فلا تكاد تبقى لنا فضلاً للمطالعة والاستذكار .

فهلا تركناها ، وأقبلنا على استذكار ما بين أيدينا من دروس ؟ فأجاب من فوره : وهل تظن أن هذه المناقشات أقل جدوى فى تفهين الأذهان ، والفسح فى الملكات ، وطبع الذهن على النظر والتماس العلل من استذكار الدروس ؟ فقلت له : كلا ! بل هى مضيعة للوقت ، صارفة عن طلب العلم ! فقال : ما دام هذا رأيك فهلم إذاً نتناقس فى هل المناقشة ضارة أو نافعة !

وحسبنا هذا القدر فى رجولة سعد طالباً فى الأزهر . ولنخلص منها إلى رجولته فى الحمامة . فلقد كان فى رجولته وجراً أنه فى الجهر

سعد الرجل

٩١

بقوله الحق مضرب الأمثال . أما رجولته فاضباً (مسساراً في محكمة الاستئناف) فقد يعتمد في قضائه الحق ولا يعتمد غير الحق . ويحكم بالعدل ولا يحكم بغير العدل ، لا ببالي غضب من يغضب ، بل لا ببالي أن يخالف رجال القضاء إلى غير ما اطمأنوا إليه من فهم ظاهر القانون ، لأنه إنما تهدى إلى تحقيق العدل بفهم روح القانون . أما سعد الوزير (الناظر) فلقد كان الأسد حق الأسد ، وإن شئت تعبيراً أشد وأقوى ، قلت كان الرجل كل الرجل .

لقد أثبت علمه رجولته أن يخضع لقول المعارف (دنلوب) كما خضع له جميع الوزراء (النظارة) من قبل ، بل لقد سطت هذه الرجولة بدنلوب وما زالت به لا تألوه ردأً وصدأً ، حتى فجع من الدبوان في أخوصة ، لا يسمع له قول ، ولا يمضى له في شأن المعارف رأى ! أما رجولة سعد في الزعامة فهذا ما أدع تفصيل القول فيه لأصحابه الذين كانوا لاصقين به في كفاحه العظيم ، وإن كنت أعرف من ذلك الشيء الكثير .

لقد كان سعد زغلول رجلاً حقاً ، رجلاً نعت أكفأه في التاريخ الطويل . وصدى شوقى بك ، رحمه الله ، في قوله : « والرجال قبل . »

غدوةٌ ورَوحَة

لقد يُسوا منه كما استيأس هو منهم ، وبلغ برسهم به ، واصطغأؤهم عليه غاية المنتهى . ولم يبق في علاجه بما يريحهم منه حيلة ، فلقد عرضوا عليه أن يملك عليهم ، أو أن بصفوه بجلائل أموالهم ؛ فأبى إلا مضياً في شأنه . إذأ فلا بد من أمر يكفيهم كل هذا ، ويكفل الدعة والراحة لهم ، وها هم أولاء يحسرون في ناديتهم ليأتروا به . وهذا الشيخ النجدي يطلع عليهم من غير موعد ، فيكون نصيحهم وجماع أمرهم . وأقبل بعضهم على بعض يتشاورون ، فقال قائل منهم : أحبسوه في الحديد ، وأغلفوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . فلا يرى الشيخ النجدي هذا الرأي !

نم يقول آخر : نخرجه من بين أظهرنا ؛ فننفيه من بلادنا ، فاذا أخرج عنا فوالله ما نبأ أين ذهب ، ولا حيث وقع ، إذ غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . وإذا الشيخ النجدي لا يرى هذا الرأي أيضاً !

نم يقول ثالث : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسبياً

وسيطاً^(١) فنيا . ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً . ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ، فيقتلوه ، فنستريح منه . فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً . فلم يقدر معنته على حرب القوم جميعاً ، ويقول الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي الذي لا رأى غيره ، وينفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

وينزل الله تعالى على رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، في هذا اليوم : « وَإِذْ بَمَكْرِكُمْ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِثُوا بِتَوَكُّلٍ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . »^(٢) ويقول عروجل : « أمٌ بَفُولُونَ سَاعِرَةٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبُ النَّوْنِ^(٣) . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ التَّرَبَّصِينَ . »^(٤)

ولما هبط الليل جرد أولئك الفتيان إلى داره ، في أبدبهم سيوفهم مشهورة . وأقاموا يرنصدون له على بابها حتى يخرج . ثم إذا هو يخرج فيعفر بالتراب وجوههم . وفي غشية أبصارهم يتسلل إلى دار صديقه ما يراه منهم أحد .

فاذا صار في بيت صاحبه أخبره بأنه مهاجر لساعنه وأخذه معه ، فاذا سأل صاحبه عن وجهه تعذر أولاً لأن بنتيه حاضرتان . ثم اطمأن فباداه بمهجره .

وخرجا من خوخه في ظهر الدار . ولم بمضيا قدماً إلى وجههما ،

(١) الوسيط : الشريف في قومه . — (٢) سورة الأنفال .

(٣) ريب النون : ما يريب أو يمرض من الموت . — (٤) سورة الطور .

فان الأقوام لا بد طالبوهما في كل سبيل ، بل عدلا إلى غار يعصمهما من العيون حتى تسكن حدة الطلب وترسل بينهما وبين البلد بعض الأبناء ، ويأتونهما بالطعام ، ويفضون إليهما بما يتسمعون في شأنهما ، على الأعداء .

ولما فتر حد الطلب بعد ثلاثة أيام ، انطلقا ومعهما دليل يبتغى بهما من السبل ، ويسلك من الدروب ، ما لا يبتغى السبارة ولا يسلكون ، بل ما لعل جمهره الناس لا يعرفون .

وبعد بضع عشرة ليلة طال فيها الترفب وحذر الطلب ، يبلغ وصاحبه المأمن وهذا المأمن المعز المانع هو يثرب .

وكذلك كان خروج محمد ، صلى الله عليه وسلم ، من بلدة مكة بعد ما عانى من قومه ما عانى ، واحتمل من أذاهم وعنهم ما احتمل . وكذلك أنجاه الله تعالى من القتل الذي بينوا لم تخالجهم فيه رحمة ، ولم تحشمهم منه رحم !

نحن الآن في يثرب ، وقد مضى على تلك الهجرة الهولة ثمان سنين ، ثمان سنين لا أكثر . فليت شعري ماذا نرى وماذا نسمع ؟

نرى شيئا لا يكاد يتسع له البصر ، ونسمع جملجلة لا تكاد تحتل موقعها طبلية الأذن . . .

هذه صلصلة السموف ، وهذه قعقعة اللام^(١) والدروع ، وهذا صهيل الخيل ، وهذا هدير الابل ، وهذا لجب يحكي جرجرة الآذى^(٢)

(١) اللام ؛ بفتح اللام وسكون الهمزة : جمع لامة وهي الدرع .

(٢) جرجرة الآدى : صوت موج البحر .

في اليوم العاصف ، وهذه الرايات المرفوعة . وهذي كتائب الجند
تتلوها الكتائب ، من رجال وفرسان ، كأنهم لم يخلقوا إلا للقراع
والطعان . وعلى كل كتيبة علم من أعلام القادة ، وكفى من الكفاة
الزادة ، والغطايف السادة ؛ وهذا مجد صاحب تلك الهجرة على
جيش كثيف من المهاجرين والأنصار :

يمشون في زَغف كأن متونها	في كل معركة متونٌ نهاء
ييضُّ تسيل على الكفاة فُضوها	سيل السراب بقفرة يبداء
فاذا الأسنة خالطتها خلتها	فيها خيال كواكب في ماء
أبناء موت يطرحون نفوسهم	تحت المنايا يوم كل لقاء

ولكن أين الطلبة وأين المنتهى ؟ الله ورسوله أعلم !
وما لأحد يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن هذا ، وهو
إما قاتل فنافض من بناء الشرك حجراً ، ومقيم في صرح
التوحيد حجراً . وإما مقتول وقد علم أن الجنة تحت ظلال السبوف ؟
ثم تتبين الطلبة ويسفر الوجه ، فاذا هو البلد الذي خرج منه
النبي ذلك المخرج منذ ثمان سنين ، هو مكة منوى قرينى الذين
آذوه وصدوا عن سبيله ، وكادوا له ولصحبه الأقلين ، بكل ما اتسع
له ذرعهم من الكيد ، وائتمروا أخيراً بفنله وتفريق دمه في القبائل ،
فلا يطلب بالثأر له أحد !

ومكة البلد الحرام ، الذي بقوم فيه ييب الله العتيق ، وهو قبلة
المسلمين في صلواتهم أنى كانوا من شرف الأرض وغربها ، والذي

غدوة وروحة

٩٧

فيه وما حوله تقام فرائض الحج ، التي أوجب الله تعالى ، على كل مستطيع من المسلمين .

ترى ما عسى أن تصنع قريش ، وقد قدم إليهم في عقر دارهم عدوهم القديم ؟

تالله لقد كانوا أضعف من أن يخرجوا الحربة ، وأذل من أن ينصبوه كيداً أو عداوة . بل لقد ابتغوا النجاة بأنفسهم من حيث أوماً هو إلى مواطن النجاة ، فكانوا بين ثلاثة رجال : إما لائذ بالبيت الحرام ، وإما عائذ بدار أبي سفيان ، وإما مغلق بابه عليه ، فهو جلس الخدر مع النساء !^(١)

« الله أكبر ! الله أكبر ! أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . . . » وهكذا قام بلال يرفع بها صوته في قلب البيت الحرام بعيون آهة القوم (أصنامهم) وأسماعها إذا كانت لها عيون وكانت لها آذان !

الله أكبر الله أكبر ، إن في ذلك لعبرة العبر !
أنظر كيف خرج محمد من بلده وكيف عاد إليه ولم بطو من عمر الدهر أكثر من تمان سنين !

(١) لما تشفع أبو سفيان إلى رسول الله صلى عليه الله وسلم بعمه العباس رضي الله عنه ، ثم أسلم بين يديه في مقدمه إلى مكة فاتحاً ، قال العباس : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر . فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

(عبد العزيز البشري - ٤)

لم يرق جيشه اللجب دماً ، اللهم إلا نطاقاً قطرتها حماقة بضعة نفر لم يكونوا أكفاء لحياة الاسلام !
لقد طالما تحدث قريش رسول الله وسألوه أن يسأل ربه أن يمتحنهم بالآيات الكبرى ، التي امتحن بها الأمم قبلهم ؛ ولكن الرسول لم يفعل ، بل لقد آثر احتمال الكيد والأذى ، علماً منه بأن رسالته أجل من أن تؤيد بالخسف والدسمة والعصف والتدمير التي كانت أليق بخوالى العصور . بل هي رسالة الحجة والمنطق وخطاب العقل ، ولفته إلى ألوان العبر ، وتمييز النفع من الضر ، والتفريق بين الخير والشر ، وهكذا .

على أن من هؤلاء الذين سألوا عهداً ، صلى الله عليه وسلم ، أن بدعوا ربه أن يهلكهم ، ويأخذهم بما أخذ به الأمم ، قبلهم ، مبالغة منهم في التحدى وإظهار التكذيب للدعوة — من هؤلاء من جاهدوا في الله حق الجهاد وأبلوا في سبيل هذه الدعوة أحسن البلاء . أما أولادهم جميعاً وحفداتهم فهم رافعو راية الاسلام ، ومذكرو حضارته الغالية النبيلة في كل مكان .

ولعمري لم نفتح السرايا ولا الجيوش كل هذا الفتح ، وإنما كان الفاتح الأول هو القرآن .

بين الحرب والسلام

لست أرتاب ، ولعل كثيرين من القراء لا يرتابون كذلك ، في أن دعاية نفوم الآن في مصر ، نحفزها إلى الدخول عاجلا في الحرب . وهذه الدعاية تظهر فوبة آناً وضعيفة آناً ، صريحة حيناً وقائمة على التعريض حيناً آخر .

ولست أرتاب في أن هذه الدعاية مصرية خالصة ، لا يستروح منها أى ربح أجنبية .

ولست أرتاب في أنه ما بعث هؤلاء الدعاة إلى دعايتهم إلا الشعور بالكرامة القومية .

ولعمري ، ما دعانى أن أقرر أن هذه الدعاية مصرية خالصة ، إلا أن المصدرين لها ممن لم تخص عليهم في وطنيتهم نسبة ، ولم تلحفهم تهمة ، بل إن منهم لمن له ماض في الجهاد جليل .

إذاً فالأمر لا يعدو ، أولاً ، الأنفة والشعور بالكرامة الوطنية ، والعزة القومية . وكيف لا يشور ، بادیء الرأى ، شعور المصرى الحر ، وهو يشهد الجيش الانجليزى يقوم وحده بقتال من يحاولون غزو بلاده واقتحام أرض الوطن ، إذ أبناء هذا الوطن نفسه قابعون في أعفار دورهم ، قانعون بهذا الضرب الرخيض من السلاسة من أذى الحروب !

ولو أننا نكتفى بهذا الموقف ، سوقف المتفرج بشهور الصراع بين المتجمع لغزو وطننا وبين مدافعه عن هذا الوطن ، لو أننا نقف هذا الموقف فحسب ، لكان الخطب بعض الشيء ، ولنا في المستضعفين في رقاع الأرض بعض الأسوة . ولكننا لا نفتأ في نهارنا وليلنا نتشادق بدعوى الكرامة ، ونتغنى بما أصبنا من الاستقلال والحربة ! فإذا أضفنا إلى هذا تلك الأناشيد الحماسية التي بنى أكثرها من لفظ بارد ، وجرى في تلحين فاتر ، نتكسر فيها أصوات المنشدين وتسترخى وتترايل ترايلا ينبو عنه أصلب راقص مخنث ، هذه الأناشيد التي تصبحنا وتمسينا كل يوم مرات ومرات ، ندعونا إلى تقلد السلاح ، والهولة إلى الصراع والكفاح — إذا أضفنا هذا إلى هذا ، كان شأننا في هذه الدنيا عجباً !

وبعد ، فلست أشك في أنه ما بعث أولئك الداعين إلى الحرب ، المستنفرين أبناء وطنهم للقتال ، إلا الشعور القوي بأن هذا الموقف لا يليق بالرجال ، ولا يتسق لهذه الدعوى العريضة في الحرية والاستقلال ! هي ، فيما أرى ، دعاية قد سمت على كل اعتبار . دعوى أثارها مجرد الشعور بالكرامة . والحر إذا أحس أن كرامته قد خمشت ، أو أنها معرضة لأن تخمس ، هب للصراع دونها ، ما يترصد لتفكير ولا تدبير ، ولا يدير الذهن في فرض أو احتمال ، ولا ينتظر ما يخرج له القياس من نتيجة الصراع والقتال :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانباً!

وإذا كانت الدعوة إلى دخول مصر في الحرب ، من غير إبطاء ، هي المثل الأعلى للحفاظ للكرامة الوطنية ، فإن من الخير أن مجرد صداراً من همننا لدرس المسئلة من الجهة العملية .

وقبل أن أعرض لما سقت له هذا الحديث ، أقرر أن مصر لن تعبأ بما عسى أن يحول في وهم واهم من أن إيطاليا إذا غزتها ، لا أذن الله ، فانها لا تغزوها كيداً لها أو طمعاً فيها ، ولكن قهراً للانجليز !

وإنه لوهم سخيف وضع ! فالغزو هو الغزو ، وإذا اختلفت الأسباب ، ولو قدرنا أن انجلترا أجلت عسكرها عن مصر ، ونحت أساطيلها عن مياهها ، ما أعوزت الطليان الحجة في المبادرة إلى احتلالها ، ولو بدعوى التمكن من قناة السويس ، لتسد في وجه الانجليز الطريق !

وهل من الحزم أن أقف مكتوف اليدين لأننى لست المقصود بالحجارة التى أرسق بها ، إذ المقصود بها غيرى من الناس ! لقد حق علينا الآن أن ننصرف عن هذا الفكر السخيف الوضع ، ونقبل على ما هو أحق بشغل العقول والأفهام .

وبعد ، فهناك مسألة أو مسائل خطيرة ينبغي درسها ، ولو درساً سريعاً ، قبل البت في هذا الحدث الجسام ، على أن تكون الكرامة الوطنية من هذا الدرس فى أسمى مكان .

١ — هل حان الوقت الذى تدخل فيه مصر الحرب مع الطليان أو غير الطليان ؟

اللهم إن مصر لحريصة شديدة الحرص على الوفاء بعهودها لحليفها العظيمة . ومن هذه العهود أن تشترك معها في الدفاع في داخل حدود البلاد . فهل وطىء الطليان أرض مصر حتى تهب طوعاً للعهد المسئول ، للنضال والكفاح ؟

٢ - لنذع هذا العهد فهو سوفى ، إن شاء الله ، إذا وطىء عدو حدود هذه البلاد ، لا أذن الله ، ولننظر نظرة أسمى وأخلق بأمة تنشد المجد ، وتضرب على النصحية في سبيل الكرامة أبلغ الأمثال . ندع هذا العهد ونقبل على أنفسنا بهذا السؤال أترى هذا مما يتسق لكرامتنا القومية أن تظل في موقف التفرج على هذا الصراع بين من يحاول الاغارة على أرض وطننا ، وبين من يدافعه بقوة السلاح عنها ، إلى أن ينكشف له بعض الثغور ، فتقتحم جيوشه علينا إقتحاماً ؛ وحينئذ نهب للقتال والصيال ! فإذا لم يكتب لهذا المغير فتح ولا غزو ؛ بل لقي اندحاره في جوف الصحراء ، فماذا يكون شأننا ، بعد ذلك ، وبأى وجه ، لعمري ، تلقى الأمم العريضة ، والأمة الانجليزية ، على وجه خاص ؟

٣ - وأخيراً ، ترى هل فكر أولئك الداعون إلى إعلان الحرب فيما تستهلك هذه الحرب من جليل الأموال . وإذا كانت المجترات تنفق في سبيلها الملايين في كل صباح ومساء ، فلا أقل من أنها تقتضينا كل يوم مئات الآلاف أو عشرينها ، على أوضح تقدير ! إنى لأرجو أن يكون أولئك الدعاة إلى الحرب قد فكروا في هذه الناحية وأحسنوا التقدير .

١٠٣ بين الحرب والسلام

هذه هي أمهات المسائل التي ينبغي أن ندرس ولو درساً سريعاً قبل البت في هذا الحدث الجسام .

ولعل خير ما يصنع أن تسرع الحكومة إلى عقد مجلس ينتظم الأقطاب من رجال الحكم ، وقادة الحرب ، وزعماء الرأي ، حتى إذا انتهوا بعد تتناور إلى رأى ، مضت على اسم الله ، والبلاد من ورائها صفاً واحداً ، مزوداً بالفوز العظيم ، سواء في الحرية أو في السلام .

كتبت في بوش في ١٩ أغسطس سنة ١٩٤٠

كيف نتقى أهوال الحرب

حين أعلنت هذه الحرب ، ودخل في التقدير العام أن مصر قد تكون هدفاً من أهدافها ، جعلت أمكر وأطيل التفكير فيما عسى أن تدرأ به عن نفسها ، وتدافع الغير عن أرضها ، وتكفل بالأمن والسلامة للوادعين الساكنين ما أذى من يعترهم من الجو في هذه الحروب الحديثة من كل مدممة قاصفة ، ومزلزلة خاسفة ، ومن كل كاوية حارقة ، ومن كل سامة خائقة .

جعلت أفكر في هذا وأطيل التفكير . وكان أول ما انخط إليه الفكر ، بالضرورة ، هو إعداد العدة ، واتخاذ الأهبة ، من تجهيش الجيوش ، وإمدادها بالسلح والعتاد ، وتغذيتها بالوسائل التي نضج بها العقل ، وتمخضت عنها التجارب ، وانتهى إليها الفن الحربي ، سواء في إلحاق الأذى بالعدو وفي اتقاء أذى العدو .

وهذا ما تمضي فيه الحكومة جادة جاهدة . فوق ما تأخذ به الأهلين من الرياضة على النظام في أوقات الشدة ، وندريب الكثير بن منهم على حسن المعونة في الأحداث .

ثم ماذا ؟ . . .

اللهم إن هذا كله وأضعاف أضعافه لا يقي البلاد ، ولا يكفل

عبد العزيز البشرى

١٠٦

السلامة والنجاء ، وإلا لكان أضمن لهذا وأكفل ، أولئك الذين أعدوا للحرب ، والسلامة من ويلات الحرب ، مالا يتصوره العقل ، ولا يكاد يتعلق به الخيال . وهذه الطائرات المغيرة تدمدم عليهم في أعز مآسئهم ، فتنسف الدور عليهم نفساً ، ولا تألو حتى الشيخ والمرأة والطفل فتكا وعصفاً !

إذاً فلا نجاء ولا سلامة ، وإذا فلا بد من أهوال تذكر أهوال القيامة ؟

يا ويلتا ! أترى العقل الانسانى قد عجز عن أن يستحدث ما يقى حتى الوداعين من غير المقاتلين ذلك البلاء ، ويعصمهم من هذه الحن والأرزاء ؟

هذا العقل البشرى الذى استحدث ، فى الزمن اليسير ، كل تلك الفواتك المدمرات القاصفات سواء منها ما يتخذ سبيله سوياً فى حجر ، وما يزلزل الأرض ، وما يرمى الخلق بما لا تبلغه ثورة البراكين وما يدمر حتى الحديد المصفى من جو السماء — أترى العقل البشرى قد عجز حقاً عن أن يبتكر ما يكفل الأمن والعافية ، ولو لهؤلاء الوداعين العاجزين عن الخروج إلى معترك القتال !

إذاً فقد أصبح هذا العقل البشرى أداة لا تصلح ألبتة إلا للافتنان فى ألوان الشرور والآثام ! وإذاً فقد حق على الانسان أن يسخر من أنه إنسان ، وأن يتمنى لو يكون حيواناً من بعض الحيوان ! ترى أوصلت الانسانية إلى هذا الحد ، وبلغ العقل الانسانى هذه المنزلة من العجز ؟

١٠٧ كيف نتقى أهوال الحرب

أظن أننا نعلم العقل الانساني إذا نحن أنزلناه هذه المنزلة وألزمناه هذا المكان الوضع .

فمن القدم فكر الانسان في دفع مثل هذا الأذى واتقاء هذه المكاره بمقابلة القوة بالقوة ورد العدوان بالعدوان ، على أنه في العصر الحديث زاد من أسباب الوقايه على قدر زيادة الموبات في معدات القتال . فانه فوفى دفع شرور الطائرات المغيره بالطائرة الحارسه فقد استحدثت المدافع المضاده للطائرات ، كما استحدثت المحابي لمرواه سكان المدن ، وأجدت القناعات الوافيه ، وضوعف الهمة في وسائل الانتقاذ والاسعاف .

على أن هذا كله لا يغني الوداعين ، إن أغناهم كثيراً ، إذا فلا زالت كفة الشر هي الراجحة ، وصفقه البلاء هي الراجحة . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

وبعد ، فحين يئست في هذا الباب ، من الاتقاء بالوسائل المادية ، النفث إلى الوسائل المعنوية ، فاذا هناك ما هو أحسن وأمنع ، وأكفى وأدنى ، وأجل وأعظم ، وأجمل وأكرم .

بين هذه القوى المعنوية قوة . لو أن الجماعات والأفراد أخذت النفوس وراضها عليها لأمكنها ، في سهولة ويسر ، أن تتقى كثيراً من الأخطار ، وتخفف كثيراً من المضار وتهون ما حتمته الأقدار . هذه القوة المعنوية التي كثيراً ما تفهر القوى المادية وتظفر بها ، وتفسد عليها حسابها ، وتغلق دون الفوز أبوابها ، هي الصبر والاحتمال .

عبد العزيز البشري

فبالصبر يقهر الجيش من هم أكثر منه عدداً ، وأجزل عدداً ، وأوفى مدداً . وفديماً قيل : « السجاعة ، صبر ساعة » .

على أننا كيف قلبنا النظر لا نجد أن شدة الخجلت ، وأزمة انفرجت ، ولا أن مسعى نجح ، وعملا كتب له الفلاح ، إلا إذا كان الصبر هو العدة ، وهو الزاد ، وهو المتكأ .

أرني عالماً أو مؤلفاً ، أو مستحدثاً أو مستكشفاً ، وصل إلى مراده ، فنفج الناس ، وزاد في بناء الحضارة ، وأجدي بأثره على الانسانية جميعها ، دون أن يكون الصبر هو عدته وملاكه ؟

أروني غنياً وصل إلى الغنى وأغنى من طريقه المعبد ، إلا ببناء النفس على الصبر الطويل ؟

في الحق أن الصبر من أجل ما أنعم الله ، على من أنعم من الناس . فليس أدفع للشر منه ، ولخرج الصدر نصيباً في كل ما تسوء مغباته (١)

قلب نظرك في جميع أسباب هذه الدنيا تجد للصبر أثراً في كل ما تحمد غاياته ، ولخرج الصدر نصيباً في كل ما تسوء مغباته (١) .

وما يسرعى النظر حقاً أن القرآن الكريم لم يهتف بخللة كما هتف بخللة الصبر ، تكررت فيه ولم يدع إلى فضيلة ، على كثر ما يدعو إلى الفضائل ، كما دعا إلى فضيلة الصبر . حتى لقد تكررت فيه كلمة الصبر ومستقائهما من : صبر ، يصبر ، أصبر ، الصابرون الخ

(١) راجع الاصول صفحة ٩٨٦ مجلد ٢ سنة ٤٨

كيف نتقى أهوال الحرب

مائة مرة ومرة ، تدور في أربع وأربعين سورة ، وحسب الصبر فضيلة .

أن يقول الله تعالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . . . » (١)

ويقول فيه : « وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . . . » (٢)

ويقول كذلك فيه : « وَاللَّهُ سَمِعَ الصَّابِرِينَ . . . » (٣)

و « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . . . » (٤)

وناهيك بمن كان الله معه . ولا شك أنه حقيق بأن يكفى الشر كله ويلقى الخير أجمعه .

والواقع أن القرآن العظيم ما كرر حديث الصبر هذا التكرير ، ولا وكد الدعوة إليه كل هذا التوكيد ، إلا لأنه مادة الفوز وعدته في الدنيا والآخرة جميعاً .

وإذا لم تكن سبيلنا في هذا المقال هي حصر فضائل الصبر ، واستقصاء مزائده ، فلنقصر الحديث على ما يشاكل ما يعانيه العالم في هذه الأيام .

والآن فانظر كيف يقول الله تعالى قوة الصبر وبأس الصابر بن من المقاتلين :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ

(١) سورة البقرة . — (٢) آل عمران . — (٣) البقرة . — (٤) البقرة وآل عمران .

مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَفْقَهُونَ . « (١)

ثم انظر كيف يقول : « الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ ،
وإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ . « (٢)

فقد رأيت أن المجاهد المؤمن الصابر يغلب عشرة من عدوه ،
فاذا كان فيه ضعف غلب اثنين بإذن الله القوى العظيم .

وقال تعالى في كتابه العزيز : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا
وَاصْبِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . « (٣)

وأنت ترى كيف قدم الحث على الصبر والمصابرة على المراقبة
والاستعداد للقاء العدو . وذلك إسهادة بفضل الصبر ، ولما يعلم الحكيم
العليم من أن كل استعداد للقتال ، مهما يعظم شأنه ، إذا لم يكن مقروناً
ببناء النفس على الصبر وأخذها بشدة الاحتمال لا خير منه ولا
غناء فيه .

وبعد ، فلو قد مضى الكاتب في ترديد الآيات الكريمة التي

(١) سورة الأنفال . — (٢) الأنفال . — (٣) آل عمران .

١١١ كيف نتقى أهوال الحرب

تحض على أخذ النفس بالصبر ، وخاصة في ساعات الروح ، وجعل
يضيف إليها الحكم والأسباب ، ويرددها بالظروف والملابسات ،
لاتسع كثيراً نطاق الكلام عن المساحة المقسومة لثل هذا المقال ،
وفي القدر الذي قدمناه الكفاية إن شاء الله .

على أنه لا يفوتنا أن نزن مبلغ حاجتنا إلى الصبر في الأيام
التي نخوضها الآن ، وفيما عسى أن نلقى في مستقبل الأيام .
نحن نتوقع غارات تعترينا من جو السماء . وقد تلحق بنا من
الأذى قليلاً أو كثيراً :

ومن ظن ممن بلاقى الحروب ب ألا يصاب فقد ظن عجزاً
ولنقدر ، لا أذن الله ، أن يأخذنا الهلع والفرع ، فماذا تكون
الحال ؟

لعمري ، لبس شراً على نفسه وشرّاً على غيره من الهلوع
الذي ضل رشده ، وفقد صوابه . وكيف لثل هذا بالنخاس أحسن
السبل لاتقاء الأذى والنجاة منه . أو استنقاذ الغير أو إسعاف
المنكوب بما يهون من بلائه ويعصم عليه الحياة ؟

اللهم ليس لهذا السليب العقل ، المستطار اللب ، بشي من ذلك
يدان ، بل إنه بهلعه واضطرابه وتخبطه هنا وهناك ، لحقيق بأن
يوقع نفسه في خلاء ، وقد يكون بعيداً عنه . ويزيد في وبل سواه ،
وقد يكون على شرف الخلاص منه . والأمثلة على هذا أكثر من أن
يلحقها العد أو يحيط بها الاحصاء .

أما هذا الذى أخذ نفسه بالصبر ، فجمع فى ساعة الروع رشده ،
 وبذلك ناحية تفكيره وتدييره ؛ فهو الجدير بأن يحكم التقية قبل نزول
 البلاء ، ويلتمس المخرج وقت وقوعه . ويسرع إلى نجدة المكروبين
 ممن عسى أن يكونوا قد أحيط بهم . وإلى إسعاف من عسى أن يكون
 قد مسهم الضرر بما يرد الآلام ، ويعصم من العواقب الجسام !
 وأخيراً ، فإذا كانت الأمم المتحاربة الآن تحسب حساباً كبيراً
 لما يدعونه الطابور الخامس ، فليس عندي أى شك فى أن الهلع والذعر
 فى مثل هذه الأوقات ، هما آخر هذا الطابور وأنفذ وأفتك .
 الهلع والذعر ، هما من أفتك الآلات فى يد العدو ، بل لعلهما
 أفتك من كل ما تطوله يده من عدة وسلاح . ولا غرو على إذا دعوتهما
 من الآن بالطابور السادس .
 فعلينا أن ندرع بالصبر والاحتمال . ولا ندع للجزع إلى أنفسنا
 السبيل . وأن نستبقى الرشد ، مهما يجشمنا من جهد . فهذه هى
 وسيلة النجاة والتخفيف من ويلات هذه الحياة .
 أسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا ، ويشد متوننا ، ويكشف عنا
 هذا البلاء ، ويهون علينا مواقع الأرزاء ، إنه سميع قريب مجيب
 الدعاء .

هل يكتب لفرنسا العظيمة بعث جديد

لم يجر قلمي قط ، طوال حياتي ، بكلمة واحدة ، في شأن من الشؤون الخارجية ؛ اللهم إلا ما كان سوقاً لعبرة ، أو ضرباً لمثل من أحداث الزمن الغابر . على أن كارثة فرنسا ، بهذه السرعة قد رجتنى كما رجت الناس جميعاً ؛ وكيف لا ترجنى وترج غيرى ، والعالم كله ، أعنى قواصيه وأدانيه ، إذا ذكر في أية رقعة منه (العالم) تمثل الغرب ، وإذا ذكر الغرب ، حضرت ، على الفور ، فرنسا . ففرنسا هي لب العالم الحديث وجوهه ، وهي روحه ومصاغه . هي مثابة العلم ، وموطن الحضارة ؛ وهي منبع الفن ، وهي حصن الحرية والمساواة . اللهم إن من شأن هذا ، بل من شأن بعض هذا ، أن يبعث الذهن مع التفكير والتدبير ؛ ففرنسا تسلم السلاح بهذه السرعة العجيبة ، ولا يزال لها من حليفتها العظيمة عدة أية عدة ، ومدد أى مدد ؟ ومن ذا الذى يلقي السلاح بين يدي العدو ، ويحكمه في عنق الدولة كل هذا التحكيم ؟ هم كبار القواد الذين شابت نواصيههم في خوض المعامع ، وقضوا العمر تحت ظلال السيوف ! لقد فكرت برغمى ، كما فكر الناس . ولقد قدرت كما قدر الناس . فيخرج لى من هذا التفكير ما يهول من الاحتمال وما يروع .

عبد العزيز البشري

١١٤

وأرجو ألا تتعجل فتظن أن هذا الذى يهول ويروع هو اندحار فرنسا عسكرياً ، فان الاندحار العسكرى مما يجرى على الأمم جميعاً ، وهو مع ذلك إذا حط من هيبتها ، أو تنقص من مالها ، أو قبض من سلطانها سنين ، طالت أو قصرت ، فانها مستردة هيبتها ، متعوضة عن مالها ، باسطة سلطانها ، مهما تكن قد أنزلت بها تلك الحرب من خسار ودمار . وهذه المثل كثيرة ، منها الحاضر للأذهان ، ومنها ما لا يزال ماثلاً للأعيان . ففرنسا التى ضربت الضربة القاصمة فى سنة ١٨٧٠ وسلخ من إيالاتها ما سلخ ، وفرض عليها من الغرم ما فرض ، قد ظهرت على ضاربها فى سنة ١٩١٨ ، وضربته الضربة القاضية ، وفرضت عليه ما فرضت من ذخيرة ومال ، وضربت عليه ما ضربت من سوء حال ، يل مهانة وإذلال ، لا يقدر انبعائه بعدها أجيالا إثر أجيال ؛ ومع هذا لم تمض بضعة وعشرون سنة حتى صنع بها هذا المغلوب ما شهدنا . وليس يعلم إلا الله تعالى كيف يكون المصير !

وكيف كان الأمر ، فان انهزام فرنسا بمثل هذه السرعة ، حربياً ، إذ هو هال وراع فان مما يعزى فيه أن هذه سنة الحروب فى طول الزمان :

فيوم علينا ويوم لنا ويوماً نساءً ويوماً نُسِر
ولا بد أن تنجلي غمرتها بعد حين ؛ ولقد مر عليك من الأمثال
ما فيه مقنع للمعتبرين !

إذاً ، فلست أخشى ما أخشاه على فرنسا من هذه الناحية ؛
ولكنى أخشى على هذه الدولة العظيمة ما هو أجل وأعظم ، وما هو
أكبر وأودح .

اللهم إني لأخشى أن يكون هذا التسليم أذاناً بانحلال هذه الأمة
إلى آخر الزمان ، أو إلى بعيد من الزمان .

ولست أحيل هذا الخوف على ضرب من التنبؤ ، أو على لون
من الحدث والتخمين . إنما هي المقدمات الواضحة التي تفضي إلى
النتائج الواضحة . فان يكن قد ند على ضبط بعضها ، فلي إلى العذر
سبيل !

وبعد ، فليس عندى أى شك فى أن للائم أعماراً ، كما للانسان
والحيوان والنبات أعماراً . وهذه الأعمار تطول وتقصّر أولاً فى الحدود
المقسومة لكل نوع من الأنواع . وأما بالنسبة للأشخاص فى كل
منها ، فرجع طول العمر وقصره إلى أسباب وعوامل لا يكاد يحيط
بها الاحصاء .

وعلى كل حال ، فان نشأة الأمم تبدأ بطفولة كطفولة الانسان ،
فاذا قدر لها الاطراد فى النوصارت إلى فتوة فشاب ، فكهولة
فشيخوخة ، فهزم فانحلال ففناء . هذه أطوار كل أمة ، ولكل أمة أجل .
وإنما يكون الانحلال والفناء إذا بلغت الأمة الغاية من الحضارة ،
واتجهت بأجل العزم إلى الغلب فى فنون الترف والنعيم . وهذه
الشواهد ما تزال ماثلة فى الأمم الغابرة . ولا أريد فى التمثيل على
أم اليونان ، والرومان والعرب ، فى الشرق وفى الغرب معاً .

فليت شعرى ، هل حان حين فرنسا اليوم كما حان حين تلك الأمم جميعاً ؟ وهل تراها قد دخلت فى دور الانحلال والفناء ، كما جرى على من لقدمها من الأمم الانحلال والفناء ؟ هذا هو السؤال الذى يشغل الهم ، ويضطرب بين جوانب النفس .

وأرجو ألا يظن قارئ أن حظ أمة ، مهما يكن عظيماً من العلم والفن والصناعة والمال ، وغير أولئك من وسائل العظمة ، مما يعصمها من هذا المصير . فانه لم يقض على من سبق من الأمم جهل ولا ركود حس ولا خمود عاطفة ولا شلل أيد ولا إعواز . إنما قضت عليها عوامل أخرى ، ترجع كلها إلى شئ واحد ، هو الأخلاق ! وإنما أعنى من الأخلاق ، أولاً وقبل كل شئ ، تلك الصفات ، أو على الأصح ، تلك الفضائل ، التى تصل بين المراء والمجموع من إشار المنفعة العامة والتضحية ، والفناء ، فى النهاية ، فى هذا المجموع ، وهيئات لأمة تستحق هذا الاسم أن تكون كذلك ، إلا إذا كان مجموع أفرادها كذلك . فاذا أقبل كل على شأن نفسه ، وآثر الدعة والتقلب فى ألوان الترف ، بقدر ما يتيأ له ، وخص بأجل مساعى الحياة النفس والولد ! إنفرط ، ولا ريب ، عقد المجموع ، وأصبح الأفراد نناراً يغدون ويروحون على وجه الأرض ، وهؤلاء لا يمكن أن تعدهم أمة ، وإن حصروا فى رقعة معينة من الأرض ، وإن ضمتهم جنسية واحدة ، وإن أخذوا جميعاً بقانون واحد أو بطائفة من القوانين !

ونعود فنتساءل : هل كان انهزام فرنسا وإسراعها بالتسليم إلى عدوها انهزاماً عسكرياً فحسب ، أو أن هذا الانهزام والتسليم ، إنما كان عرضاً من أعراض الشيخوخة التي تضرب أعضاء الجسم بفنون العلل والأسقام ، والتي لا رجاء معها في قوة ولا احتمال صدام ، بل إنها النذير الحق بالموت الزؤام ؟

لقد انتصرت فرنسا في حروبها وانهزمت مرات ، كما انتصر غيرها من الأمم وانكسر مرات . ومع هذا فسرعان ما استردت الأمم المقهورة قوتها ، ووالت سعيها الحثيث في سبيل الحياة ، وذلك بفضل حيويتها وما انطوت عليه من الرغبة القوية في إعزاز الوطن والتضحية بالنفس والولد والمال في سبيل مجدها ، وإنكار الذات ، بل إفنائها في المجموع .

وإنما حرك في نفسى هذه المرة ، ذلك السؤال ، وشبه فيها كل ذلك الشبوب ، ما استشرى في كثرة الفرنسيين في السنين الأخيرة من إيثار الدعة ، والافراط في حب الذات وعدم الاكتراث ، وقلة المبالاة بالمنفعة الوطنية من قريب أو من بعيد ، والظن بالتضحية في هذه السبيل بقدر كبير^(١) .

وأخيراً فإن علينا ألا ننسى روح النشوز والتمرد التي طغت بنوع

(١) مما أصبح شائعاً على ألسنة الفرنسيين ، أن زوجاً إذا سئل ، أو زوجة إذا سئلت : هل لك أولاد ؟ فيكون الجواب الحاضر السريم : أجيء بأولاد ننشئهم ويزيهم ليدبحوا في ميدان القتال ؟

خاص ، على طبقة العمال (١) . والشواهد على هذا وهذا وهذا
بما يفوت جهد الاحصاء !
ذلك هو السؤال ، فهل لي أن أطمع من بعض العالمين في جواب ؟

(١) حدثني ثقة جليل القدر . أنه كان إذا هبط باريس نزل في فندق معروف
يتصل به مطعم كبير . فلم يرعه إذ شخص إليه في صيف سنة ١٩٣٩ إلا أن يرى
هذا المطعم مغلقا . فقال لمدير الفندق في هذا ، فأجابه بأن الحدم لابد وأن ينصرفوا
إذا كانت الساعة التاسعة . فد الاطعام إلى غاية وقت العشاء يقتضى طائفة أخرى
من الحدم . وفي ذلك من النفقة ما لا يحتمله المطعم بحال .

والادهي من ذلك والاغرب ما حدثني هذا الصديق عن صديق آخر ثقة
كذلك جليل القدر قال : في ذلك الصيف نفسه ركب (فلات) سيارة أجرة
(تاكس) ، وسمى للسائق المكان الذي يطلبه ، وكانت الساعة الثامنة مساء إلا
خمس دقائق ، ففضى به . على أنه لم تكتبل الثامنة حتى وقف السيارة وأوماً اليه
بالزول . فاستغرب صاحبنا الامر وراجع السائق في هذا العمل الشاذ . فكان
جوابه الهادئ المطمئن : لقد انقضى وقت عملي ، وعلى ان انصرف لشأني لا أتخلف
دقيقة واحدة !

والادهي في هذا أن صاحبنا حين دفع لذلك السائق أحمره الذي رقبه العداد ،
سأله الرضيح (البشيش) فأبى « بالضرورة » ، ففضى السائق لا يألوه تهكما
به وزرابة عليه !

إصلاح

من بضعة أيام وجه صديقى الكاتب الجليل القدر الأساذ محمد توفيق دياب فى صحيفة الأهرام كتاباً إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء . وهذا الكتاب يدور حول « الشؤون الاجتماعية » . ولا أكتّم الفراء أن هذا الكتاب لم يعجبني فحسب ؛ بل إننى لا أجد حرجاً من القول بأنه أطربنى ، لأنه أحسن الترجمة عن خاطر طالما سغل نفسى ، واجتاز صدرأ من همى .

ولا بد أن يكون كثير من قراء « الثقافة » قد قرأوا هذا الكتاب على أننى ألخص موضوعه تلخيصاً سديداً لمن عسى أن تكون قد فاتهم قراءته ، ليكون حديثنا بعد ذلك بيناً ، واضح المعارف بين يدى الجميع .

استهل الكتاب بشكر صاحب المقام الرفيع على عنايته الجلييلة بالشؤون الاجتماعية فى بلادنا ، حتى أنشأ لعلاجها وزارة خاصة ، وبلادنا أئسد ما نكون حاجة إلى العناية « بالشؤون الاجتماعية » ، ففى الحق إننا محتاجون ، من هذه الناحية ، إلى فنون كثيرة من الإصلاح .

على أنه ذهب فى كتابه إلى أن الإصلاح المادى لا يكفى وحده

في إدراك الغرض المنشود ؛ بل لا بد من الاصلاح الروحي أيضاً ، ويعنى به إعداد نفوس الشعب لتقبله ، وتجريد العزائم لتحقيقه والمعاونة عليه ، وضرب لذلك الأمثال مشتقة من الواقع المشاهد الملموس .

ومن هذه الأمثال ، أنه لا يكفى أن يصدر تشريع بوجوب ردم البرك ، لعصمة الفلاحين من أذى الأمراض التي يعترهم بها البعوض ؛ فانه إذا قدر وردت البركة أو البرك حول القرية فسرعان ما يحتفر سكانها بأيديهم غيرها لصنع الآجر أو الحاجة زروعهم إلى التراب يخلط بالسجاد !

ولا يكفى أن يجري الماء النقي إلى دورهم ليشربوا منه ، وينقوا كثيراً من الأمراض والأسقام التي تصيبهم من شرب الماء الكدر الذي كثيراً ما يلوث بألوان المكروبات ؛ ففي الغالب أنهم سيعدلون عنه إلى التروى من هذا الماء الكدر ، إيماناً بأن الماء إذا صفا من الطين لا يجدي على الأبدان .

ولا يكفى أن تقام المرافق في القرى ليكفل للفلاحين قضاء حاجاتهم وتطهرهم ، وكف الكثير من عادات الأمراض عنهم ؛ فأكبر الظن أن الفلاح مُسَوَّلٌ ، في قضاء حاجته ، إلى الخلاء ، مؤثر الاستحمام في التربة أو الجعفر الصغير إذا طلب ، يوما ما ، الاستحمام ، وهكذا !

إذاً ، لا بد من أن يقترن هذا الاصلاح المادى بالاصلاح النفسى ، الذى يرمى إلى ترسيخ الاعتقاد في نفس الفلاح والعامل جميعاً بأن

إصلاح

١٢١

هذا الاصلاح الذى يراد له أمر نافع جداً ، لا بد منه ، ولا يحصى عنه ان يريد الحياة السعيدة ، ولو بمقدار ، الحياة الخالصة من التعاسة والأسقام والأكدار ، ولو بمقدار .

هذا الاصلاح الذى يطبع الفلاح والعامل على إدراك ما ينفعه وما يضره ، ويستكرهه استكراهاً ، بدافع من نفسه لا بقوة خارجية ، على ترك ما ألف من مكروه العادات ، ولو كان هذا الألف إراثاً منحدرًا من ألوف السنين .

وأخيراً ، هذا الاصلاح الذى يشعر الفلاح والعامل ، أو فى الشعور أنه عضو ، بكل معنى الكلمة ، فى هذا المجتمع ، لا خير له إلا فى خيره ، ولا سعادة لشخصه إلا بسعادته ، يشعره أنه عضو حقاً فى هذا المجتمع ، ويملا قلبه إيماناً بأن عضواً من الأعضاء لا يمكن أن يكون صحيحاً إذا كان البون معتلاً سفيماً .

فاذا جرى هذا الاصلاح فى طريقه ، وسلك من النفوس مسالكه ، فحينئذ لا يخشى أن يقاوم الفلاح أو العامل ما يراد لعيشة من حماية وترقية وإسعاد . بل لا يخشى أن يعتل على هذا أو يتناقل عن الاستجابة لدعوة العاملين المصلحين . بل إنه ليرجى ، حينئذ أن يطلب الاصلاح جاهداً إذا أبطأت عنه وسائله . وإنه ليعين على تحقيقه بكل ما يمتد إليه عزمه . بل إنه ليوجه السعى فى الحياة ، أو يوجه صدره عظيماً من السعى فى الحياة إلى ما يمدى المجموع لشدة إيمانه بأن جزء متصل تمام الاتصال بهذا المجموع ، وأن كل خير يصيب هذا المجموع هو خير له ، ولو لم يعد على شمله ، من الجهة المادية ، بكنير ولا قليل !

وبعد ، فلقد يأخذك أشد العجب إذ ترى بلادنا ، والحمد لله على السراء ، سبابة إلى اقتباس أحسن النظم فى أكثر مرافق الحياة ، وسن أحكم القوانين وأدق اللوائح ، ووضع أجل المشروعات فى مختلف نواحي الإصلاح ، مما من حقه أن يكفل لنا الأمن ، والدعة ، والرغد ، والغنى ، ورفع المستوى العلمى والثقافى ، وتحريك الأيدى المعلقة ، ومنع النشرد والتسول الخ . . . مما لا تطمع أمة على ظهر الأرض فى مزيد عليه ، أو تنطلع إلى سعادة تتراءى وراءه ؛ وسع ذلك فنحن نحن ، والحمد لله على الضراء ، لا نكاد نتزحزح فى شئ أو نريم .

سر هذا ، فى مذهب الأستاذ دباب ، أن الإصلاح لا يجدى إلا إذا تهيأت لقبلة النفوس ، بحيث يتلقاه الجمهور راضياً مغتبطاً . وهذا حق لا ريب فيه ، على أن هناك علة جوهرية تتقدم هذه العلة ، وهى التى أحيى عليها بقية الكلام ، وهذه العلة هى أن الخمسين أو الستين عاماً التى عشناها محرومين السلطان ، معفين من الاضطلاع بالعطائم ، مقالين ، بالضرورة ، من احتمال التبعات — هذه السنون الطوال التى عشناها عيشاً آلياً أضعفت فىنا الشعور الحق بالواجب إلى حد كبير !

نعم ، لقد أضعفت فىنا هذه السنون الشعور الحق بالواجب إلى حد أن أصبح العامل منا إذا عمل ، سواء فى الأسباب العامة أو الخاصة ، لا يكاد يشعر بأنه يؤدى واجباً ؛ وإنما يسوقه إلى علاج ما يعالج خوف المسؤولية ، وحسبان العواقب المادية . وكذلك جعل

إصلاح

١٢٣

سعيناً بتحول إلى الاشكال والأوضاع ، ما دامت هذه الهياكل تسقط عن المرء التكليف ! أما اجتماع النفس ، وحد العزم ، وتجربد المهمة لأدراك الأغراض ، وإصابة الأهداف التي شرع لها الفنان ما شرع ، وأعد لها المصلح ما أعد ، فلقد صرنا من ذلك أبعد ما نكون .

الأمر كله لا يزيد عندنا ، مع الأسف العظيم ، على ملء الاستارة ، أو سد « الخانة » ، أو « تخليص الفيلم » كما يقولون ، وعلى ذلك يستحيل كثير مما نعد من وسائل الإصلاح هياكل لا تدب فيها شئ من الحياة ؛ ولأضرب لك ، يا سيدى القارئ ، بعض الأمثال ، لا أعدو فيها ما يقع لسمعك وبصرك فى كل صباح وفى كل مساء .

تصدر الأوامر المشددة إلى رجال البوليس بمنع التسول فى الطريق ، وكف الغلمان المشردين من جامعى الأعقاب ونحوهم ، فإذا الشرط يجردون ويجهدون ، حتى تكاد تسعر بأن القاهرة مثلاً قد خلت من كل متشرد أو شحاذ . وقد تظل على هذا الشعور أياماً ، وقد تظل كذلك أسبوعاً ، ثم إذا المنسولون والمتشردون بظهورهم لعينيك رويداً رويداً ، وهم يقومون بمهمتهم الشريفة بعين جندى البوليس .

ذلك بأن رئيسه كان بسدد عليه ، ويطلعه الحين بعد الحين ، فلما فتر عنه فتر هو الآخر عن الآخرين .

يقضى النظام الحكومى بأن يحضر الموظفون إلى مكاتبهم فى وقت معين ، وألا ينصرفوا عنها إلا فى وقت معين ، بحيث يجزى من تأخر عن الأول ، ومن تقدم على الثانى ، وقد تضبطهم بدفتر أو « بساعة »

ترقم وقت حضورهم مثلاً ، وذلك رغبة فى سرعة إنجاز ما تعالجه المصالح من وجوه الأعمال ، وأنهم لينفذون هذا النظام راضين أو كارهين : ولكنك ، مع هذا ، تجد المسألة ليس من شأنها أن تشغل من وقت الموظف ساعة ، أو بعض الساعة ، تلبث بين يديه الأيام ، بل الأسابيع ، بل الشهور فى بعض الأحيان ، وكذلك تعوق المصالح العامة ، وكذلك تتعطل مصالح الناس .

ذلك بأننا نحضر فى الميعاد ، ونصرف كذلك فى الميعاد ، ألسنا قد خرجنا من العهدة ، وأما حتى سوء المقال ؟ ولقد يكون بعض الموظفين مرهقين بكثير ما يعالجون من الأعمال ، ولكنهم ليسوا كثرة على كل حال .

وقس على هذين المثالين ما تهبأ لك القياس على أننى لا أحب أن أدع الكلام فى هذا المقام قبل أن أضرب مثلاً ثالثاً قد يحمله كثير من القراء . ولعل فيه ما يروح عنهم بعد ذلك الحديث الأليم ، وإن كان هو أيضاً لا يخلو من العظة والاعتبار .

زعموا أنه فى عهد « السلطنة » صدرت الأوامر إلى رجال الإدارة بمصادرة جميع الأسلحة التى يحرزها الأهليون ، فجعل حضرات رجال الإدارة وعلى رؤوسهم حضرات مأمورى المراكز يتبارون فى تنفيذ هذا الأمر ، استباقاً إلى إدراك الخطوة ، وتبؤى منزلة الرضا عند من فى يدهم السلطان .

وبسمع المأمور أن زميله فلاناً جمع من بلاد مركزه خمسة آلاف بندقية فى خلال الشهر ، فبأى هو إلا أن يجمع ستة آلاف ، وهكذا ،

إصلاح

١٢٥

ويستمر التنافس بين حضرات المأمورين في جمع البنادق حتى أقبلوا على العمد والأعيان يكلفونهم الهبوط إلى القاهرة لشراء كل ما تيسر لهم شراؤه من الأسلحة القديمة في سوق السلاح !

وأخيراً ، عز على أحدهم ، ألا يعزهم جميعاً ، ويظفر دونهم من الخطوة بأعلى مكان ، فحشر إليه كل النجارين والحدادين في مركزه ، وكان في الوجه القبلى . وتقدم إليهم بأن يتفرغوا من كل ما بأيديهم إلى صنع بنادق لا تزيد على كعوب وأنايب ، وتنى يشبه الزناد . وكذلك تم له أن يورد في خلال عام ، وبعض العام ، نحو مائة ألف بندقية مصادرة من الأهلين !

ويشاء الله أن يرقى هذا المأمور ، في إثر ذلك ، إلى منصب وكيل مديرية ، وما شاء الله كان !

وبعد ، فأعزز على أن أجلو عن نفوسنا هذه الخلال ! وما بي ، شهد الله ، إلا أن نتفطن إلى أمراضنا لنسعفها بالدواء الناجع إن شاء الله ، والله در القائل : « أمر مبكياتك لأمر مضحكاتك » ، فان من أبطال اليوم أضحكك في الغد ، وإن من يضحكك اليوم لمبكك طول الأبد . على أنني لست اليوم متشائماً ، بل إننى متفائل ، والشكر لله ، أعظم التفائل ؛ متفائل لأننا أنشأنا ندرك واجبنا ، ونمهد لألوان التبعات عوانقتنا من يوم صار إلينا السلطان في بلادنا ؛ متفائل لأننا جعلنا ندرك ما فاتنا في تلك السنين الطوال ، فرحنا نستدركه في قوة وعزم ، وأرجو لها مزيداً على الأيام ؛ متفائل لأننا الآن ،

ولا ريب ، في نهضة ترسل الحياه دراكا في جميع نواحي الحاة وحسبنا أن كنا إذا سيق الشاب من أبنائنا إلى الجندية ، شبعته أمه وإخوته وعمانه وخالاته ، كما بشيع أعز الموقى ، وماذا بعد النواح والعيول ، ولطم الحدود ، وشق الجيوب ؛ حيث لا حرب ولا قتال ، ولا توقع حرب ولا قتال ؛ إن هو إلا تدريب عسكرى لاستعراض في هذا المهرجان أو ذلك المهرجان ؟

أما اليوم والسيوف مسلولة ، وأفواه المدافع مفعورة ، والموت يتخطف بلا حساب من البر والبحر والهواء ، فهؤلاء شبابنا ، بل هؤلاء كهولنا يتبارون جاهدين في إدراك الشرف بحمل السلاح ، فاذا شيعهم أهلهم فكما تزف العروس ، وماذا أبعد أرن (الزغردة) وأحلى الغناء ؟

نحن في نهضة قومية جليلة ، أرجو أن تجدى علينا ، أول ما تجدى ، قوة شعورنا بالواجب ، وسارعتنا ، بباعت من أنفسنا ، إلى القيام به لأنه الواجب ، لا طمعاً في نواب ، ولا خوفاً من عقاب . وأن يكون ذلك الفتح في القرب جداً ، إن شاء الله .

فى الاصلاآ اىضاً

سمعت من الرادىو فى لىلة من لىالى هذا الأسبوع أن زعماء الأحزاب فى إنجلترا ، وقاده الرأى فىها ، قد اجتمع نىتهم على أن يقوموا بمآلة شديدة فى جمىع أرجاء الجزىرة ىسرحون فىها للشعب الانجلزى أغراض اللفاء من الحزب ، وكىف خاضوها ولماذا غامروا فىها ؟

أما أن زعماء الأحزاب على اختلاف مآهبهم وتفرق نزعاتهم ، يتفقون على هذا وىبادرون إلیه ، فذلك ما لم نفع عندى موقع عجب ، لأن وطفنة الانجلزى هكذا ، وخاصة فى الأيام الشداد ؟ وإنما الذى اسرعى كل عجبى أن الشعب الانجلزى المثقف المستنیر ، ما ىرح فى حاجة إلی من یقفه على السبب الذى حمل دولته على الاشتباك مع الألمان فى هذه الحرب الضروس .

على أن عجبى لم یطل ، فان اللفاء إنما أعلنوا الحرب باسم اللىموقراطية ، وإنما حشدوا جمىع قواهم وكل كىدهم لقمع الدكتاتورىة الصائلة المعرودة فى الأرض ، والتى إذا تركت وسأها لا تنتهى عربتها وعصفها بالأمم الوادعة عند حد . فمن حى هذه اللىموقراطية على الرجال المسئولین أن یراجعوا الشعب نفسه ، ویدلوا إلیه بمآتهم

فما أقدموا عليه ، وما يحشمونه فى سبيله من التضحيات الضخام ، وأن يبينوا للناس ما عسى أن يكون قد تسببهم عليهم من العلل والأسباب حتى يحيطوا بالجليل والدقيق مما لا ضرر فى علم الجمهور به وظهوره عليه . وفى هذا فوق ذلك بافيه من زيادة الاستحسان للحرب ، والشدة على الغرائم للقضاء على العابثين بالحضارة ، المفسدين ، وأقول زيادة لأنه بحسب وطنية الانجليزى أن يسمع من حكومته وبرلمانه النفير إلى القتال ليركب رأسه أو محتويه مبدان ، سواء فى البحر أو فى الأرض أو فى السماء ! .

ولا بذهب عنا بعد ذلك أن من أخطر الأسلحة التى يقاتل بها الألمان ، إن لم يكن أخطرها جميعاً ، هو سلاح الدعاية الذى لا يتحسب ولا يتوقف ، ولا يسكن ولا يبرد ، ولا يهدأ ولا يفتر ، والذى يسلكون به كل بلد ويرمون به كل قرية ، وينفذون به بالرديو إلى كل بيت ووسيلتهم فيه هى الكذب المتوالى ، والألفك المتدارك ، مصوراً فى صور ، ومجملواً على أشكال وأوضاع ، قصداً إلى توهين العزائم وإضلال النفوس باليأس . ولا تنس النصيحة الترايبية القائلة : أكذب ، ثم أكذب ، ثم أكذب !

وإذا كان الانجليز هو آخر من تبلغ فيه مثل هذه الدعاية أو تنال من عزمه الجبار على الصراع ، وخاصة إذا كان صراعاً لمجد الامبراطورية فلا شك فى أن من الخير ألا يترك هذا الوطنى الشجاع امتطوع وفى نفسه من أغراض الحرب ، التى يحتسب فيها بدمه شئ أو أشياء ! إذاً فليس من العجيب ، أن يجرد من زعماء الأحزاب الانجليزية

وغيرهم من أعلام الرأي حملة لهذا الغرض أو حملات . ولكن العجيب كل العجب ألا نصنع نحن مثل هذا ونحن أحوج إليه بأكثر من الكثير !

وإني أبادر فأقرر أن حملاتنا التي من هذا الطراز لا تحتاج ، والحمد لله ، إلى تظاهر الزعماء السياسيين واستراكتهم في هذا السعي ، لأننا لسنا بحاجة إلى من يدلى إلينا بالأغراض التي من أجلها دخلنا الحرب ، لأننا لم ندخل بعد حرباً ، أما إستحسان الجماهير وشد عزائمه لخوض الحرب ، إذا أذن النفير ، فانه ليغنيننا في ذلك : « يا قاعد في دارك والعالم في نار » وأخواتها . فلقد انتفضنا استحساناً بكثرة الاستماع إليها كل يوم ، في الصباح ، والظهيرة ، والأصيل ، ومغرب الشمس ، وفي جوف الليل ، حتى أصبحنا لا ندرى أين نفث بعض هذا الذي يغلى في صدورنا من شدة الاستحسان !

اللهم إن الحملات التي تحتاج إليها بلادنا أشد الاحتياج إنما هي حملات إجتماعية بحثة لا صلة لها بالحرب ، ولا سبب لها إلى الحزبية ولا الأحزاب .

نحن ألقينا حرباً أم لم نلق حرباً ، محاجون إلى الإصلاح في شتى نواحي الحياة . وإذا كان توقع الحرب والاستعداد ، بكل ما في الطاقة ، للحرب لم يلفت نهضاتنا العظيمة عن النطلع إلى كثير من النواحي ، ولم يثن القائمين على الإصلاح عن معالجة ألوان من المشروعات ، قصداً إلى الإصلاح المنشود ، والحقيق بأمة تتوذب للمجد توثباً ، وتبقى الحياة كما ينبغي أن تكون الحياة — إذا كان هذا

عبد العزيز البشري

١٣٠

هكذا ، فإن من الحق علينا ألا نغفل ، أولاً وقبل كل شئ ، حقيقة ثابتة ، هي أساس كل بناء ، وجوهر كل إصلاح ، وهذه الحقيقة هي الثقة ، فإذا لم تكن ثقة فلا بناء ولا تعمير ، ولا إصلاح ولا فلاح . وأحوج ما يحتاج إلى بث الثقة وعقدها في النفوس هي بلاد الريف على وجه خاص .

ويعد ، فأنت خير بأن أى علاج بعمل أو بتشرع ، يراد به إصلاح شأن الجماعات ، ورفع مسواها العقلى والخلقى ، والخط من أعباء تكاليف العيش عنها وإتباؤها حظاً من أسباب السلوى والرفاهية لا يمكن أن يؤتى ثمرته ناضجة أو لجة ، في بعض الأحيان إلا إذا تعاونت عليه الجماعة . ولا يمكن أن نتعاون الجماعة على عمل ما إلا إذا سادت الثقة ، ثقة الأفراد بالأفراد ، وثقة الأفراد بالجماعة ، وثقة الجماعة بالمجموع . وهذا كلام بديهي لا يحتاج إلى نظر واستدلال ، على تعبير أصحاب العقول . وإلا فكيف يتبهاً للأفراد أن يتعاونوا على خير يعمهم ، ويعود على سملهم ، في حين لا بثق أحد منهم بأحد ، ولا يقدر فيه صدق النية ، ولا رغبة الخير لغيره ، فرداً كان أو جماعة ؟

وهنا أرى من واجبي الوطنى أن أصارح بحقيقة مؤلمة ، ولكنها هي الحقيقة ، الحقيقة الواقعة ، التى لا يجدى فى زوالها تجاهلنا ، تخففاً من ألم الشعور بها ، أو تظاهراً بالوطنية المزيفة المزورة . هذه الحقيقة هي أن حكم الاستبداد والظلم الذى خلت به القرون الكثيرة ، قد طبعته على سوء الظن وفقدان الثقة ، سواء بالأفراد ، أو بالجماعات ،

أو الحكومات . ولذلك تراه شديد الحذر في غير موضع لأى حذر ، حتى لقد يستشيرك في بعض شأنه ، فتشير عليه بالرأى صادقاً مخلصاً ، فيعدل فوره إلى عكسه لأنه لم يقدر فيك إلا غشاً وخدبة وكيداً . إذاً فالخير كله في العدول إلى مانهيته عنه ، وحذرته منه .

ولا شك في أن أبلغ ما يقعد بالفلاحين المصريين عن التعاون على ما يجديهم ، ويدفع الأذى عنهم ، ويعود بالخير الكثير عليهم ، هو فقدان الثقة بنهم ؛ ولقد تراهم يساهمون في أعمال تعاونية ؛ ولكننا نكون كذابين وغشاشين ، ومدافعين لكل إصلاح اجتماعي يراد إذا زعمنا أنهم يخفون إليها من تلقاء أنفسهم ، أو باعث من شعورهم وتقديرهم لما فيها من نفع وخير . ولكن فتنش عن العمدة ثم فتنش عن المأمور ، ثم فتنش عن المدير ، ولعلك محتاج إلى التفتيش أيضاً عما وراء المدير !

ولعل في غنى عن إيراد الأمثلة على هذا ، فهي من الكثرة والحضور بحيث يعد إيرادها ضرباً من العبث ليس فيه غناء ! على أنني أروى في هذا الباب حكاية لا تخلو من تفكيه ، أرى القارئ محتاجاً إليه بعد كل هذا الجهد الأليم ، وهو على كل حال من باب « وشر البلية ما يضحك » ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! من ثلاثين سنة أو تزيد قليلاً بدا لبعض مديري الأقاليم ، أو أنه في أغلب الظن قد أوعز إليه من بعض السلطات العليا ، أن يدعو من قبله من الأهلين إلى المساهمة في عمل ذى صبغة اقتصادية ، تغل المائة من رأس ماله أربعة في العام . ويلح المدير كما هي العادة

على مأمورى المراكز ، ويلج هؤلاء على عمد القرى ، ويلج هؤلاء على الأهلين ؛ ولم يكن فى يد هؤلاء فاضل من مال ، إذا لم تكن السنة سنة رخاء . فإذا لعمري يصنعون ليتعاونوا على هذا الخير الاقتصادى العظيم ؟

اللهم لا حيلة لهم إلا فى أن يعوذوا بالمرابين ، فيقتضوا منهم المائة بخمسة عشر ، وبعشرين ، وبثلاثين ، ليثمروها فى هذا المشروع المبارك الذى تغل مائته فى العام الأربعة لا تزيد !

وهذه الحكاية ، ولا رب ، ستذكرك حديث جمع السلاح فى عهد السلطة ، وقد أوردته عليك فى « الثقافة » من بضعة أسابيع . وهذه وتلك إذا اختلفتا فى الموضوع فكلتاهما تلتقيان فى الدلالة على الأسلوب الذى يجرى عليه حكام الأقاليم فى تنفيذ المشروعات التى يراد بها الإصلاح من أى نوع كان ، وهذا من شأنه حتما أن يزيد خلة سوء الثقة التى طبع عليها الفلاح المصرى من الزمان البعيد !

ومن أغرب الحوادث التى صادفتنى فى هذا الباب ، أننى ذات عشية ، وذلك من نحو اتنى عشر عاماً ، طلبت ميدان السيدة زينب ، رضى الله عنها ، لأستقل الترام إلى محطة مصر ، إذ كنت أسكن فى خط المطرية ، فرأيت خلقاً كثيرين ينتظرون ، وتبين أن الترام تعطل فى بعض الطريق لأمر ما ، وطال انتظار الناس ؛ وكلما تقدم الزمن كثر المنتظرون . وجعلوا ينتظمون جاعات يتحدثون فى أمر الترام ثم فى غير الترام . وفيما هم كذلك إذ يقبل اثنان من الفلاحين ،

في الاصلاح أيضاً

١٣٣

تضطرب أسنانهما بين الأربعين والخمسين ، فيسأل أحدهما أول رجل من أول مجموعة يلقاها عن موقف الترام الشاخص إلى باب الحديد ، فيدله عليه ، ويشير بيده إليه ، فيسأل من يليه السؤال نفسه فيجيبه بالجواب نفسه ، ثم يسأل من يليه كذلك ، فيكون الجواب ، بالضرورة كذلك . حتى إذا فرغ من سؤال هذه المجموعة فرداً فرداً ، تولى عنها وأقبل على غيرها يسألها هكذا ، وهكذا . وأنا في أثناء ذلك ألاحظه ودمى يغلى من الغيظ في عروقي . ورأيت من الخير أن أبعث الطمأنينة في نفسه ونفس صاحبه ، فأكسب الأجر في هداية السائل الضال من جهة ، وأريح نفسي من شهود هذا الاحاح الشنيع من جهة أخرى .

وتقدمت إلى الرجل وأخذت بيده ، وجردته إلى الموضع الذى كنت أنتظر فيه . وقلت له : يا سيدى ! أنا أيضاً ذاهب إلى الباب الحديد فاركب أنت وصاحبك معى ، وسنزل في الميدان معاً . ويشاء الله ويقبل الترام . وينب الناس إليه وثباً متسابقين في إحراز المجالس ، ويشب الفلاحان كذلك ، وصادف أن وقع مجلسهما في الدكة التى أسمى من الركبة مباشرة ، ولم يكدا يستقر بهما المقام حتى مال ذلك الرجل السّال إلى من على يمينه يقول له : صحيح ياخويا العربية دى رايحه باب الحديد ؟ فيجيبه جاره : أن نعم . . . فيمط عنقه إلى الجالس بجواره ويوجه إليه السؤال نفسه ، فيبادره بالجواب نفسه . فينتقل بالمسألة إلى الدكة التى أسمى ، حتى إذا فر الجالسين عليها بالسؤال واحداً

فواحداً لم يرعنى إلا محاولته التعلق بمتكا الدكة التى أمامه ليبلغ رأسه التى أمامها ، فجذبتته من فضل عباءته وقلت له : يا رجل ! ألم أقل لك إننى أنا أيضاً ماض إلى باب الحديد ؟ فاطمئن وكن حيث أكون !

ووالذى بيده نفسى ، لقد كان جوابه الحاضر العاجل : « ومنين جانى إن ذمتك نضيقة ؟ »

ولقد يكون هذا الرجل غالياً مسرفاً فى سوء الظن بالعالم كله ؛ ولكن هذه الخلة على أى حال ، شائعة فى سواد الفلاحين المصريين .

وبعد ، فبأيها العاملون ! إذا كنتم تبغون الإصلاح حقاً ، ولست أشك فى أنكم تبغونه حقاً ، فعليكم أولاً أن تقنعوا الفلاح ، على وجه خاص ، أنه ليس وحدة منفصلة مستقلة ، بل إنه عضو من المجموع ، شأن اليد أو الأذن أو الأنف من الجسم ، يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه ، ويموت بموته ، وينعم بنعيمه ، ويشقى بشقائه ، ويعز بعزه ، ويذل بذله !

وعليكم ثانياً أن تشيعوا الطمأنينة فى نفس الفلاح ، وتردوا الثقة بالناس عليه ، فلا يعود ما يرى أحداً من الناس إلا قدر فيه عدواً بكذبه وبغشه ، ويسعى ، جاهداً ، إلى المكر به والكيد له ما وجد إلى ذلك سبيلاً !

وعليكم ثالثاً أن تكونوا موضع الحكام من قلبه ، فلا ينظر إليهم نظر الضحية للجزار ، أو نظر الطير للصائد ، على تعبير الزعيم الأعظم ،

رحمة الله عليه ، بل ينظر إليهم على أنهم كافلو آمنه ، ومتعهدو رفاهيه
ويسره ، ومرشدوه إلى طرائق خيره ونفعه .

فهلم ، جردوا الحملات من الدعاة القادرين ، حتى يتلخوا من
حدود الفلاح ما غرست عهود الظلم والاستبداد . فاذا بلغت هذا الذي
فانظروا من مساعيكم خير الثمار ، والله تعالى نصير العاملين .

فى الطفولة المشردة

من بضع لىال خلت سمعت من الرادىو صدراً من الأحادىث القىمة والأزجال الطرىفة التى ألقىت فى حفلة « الطفولة المشردة » . وما إن انصرف الرادىو إذاعة أخرى ، حتى شغل حدث هؤلاء الطفل المشردين ذهنى ، وملك على نفسى .

هذا بصرى يتعثر فىهم فى كل شارع من شوارع القاهرة . وكل جادة من جوادها ، وكل زقاق من أزقتها ، لا يخلو منهم مكان ، فى لىل أو نهار !

ناحلو الأجسام ، بادو العظام . حى كأنما شدت الجلود عالىها شداً ، فلم تفسح بينهما لغير العروق سسلكا . وهذه وجوه مغبرة ، كأنها بعثرت لتوها من جدث . وهذه عىون حىرى ، لا تكاد تقع على شىء حى تتحول مسرعة ، خشبة أن يعترها المكروه من الناحبة الأخرى ، فهى فى فزع دائم وروع مقيم . دائمة الوتب والنوارى خلف الجدران ، تحسب كل صىحة عالىها . ولا تحسب عىناً مفتوحة إلا لتصىيها ، ولا رجلا ماشبة إلا لتركها ، ولا يداً مرسله إلا لتتبا للبطش بها .

ولقد تحسب ، فى بعض الحىن أنها أصابت من هذا العدو

عبد العزيز البشرى

١٣٨

(جمهرة الناس) الفرة ، ووافقت منه الغفلة ، فسرعان ماتنفض
إنقضاض العقاب على عقبة سيجارة . فاذا هى التقطتها ولت مسرعة
تضرب ذات اليمين وذات الشمال ، فراراً من الطلب الدّراك ليس
له انتهاء ؛ ولقد تراها فى تلك اللحظة ، لحظة الأمن ، وهى تنبش الزبل
فى وعائه القائم فى بعض الطريق ، لعلها تصيب كسرة أو فضالة
من طعام !

هى أشباح تغدو وتروح كأنها أضغاث حلم ثقيل ! وكثيراً ما تسمع
منها سعالاً ينيك عما يمزق الرئة ويتطلع منها إلى الضلوع !
جرمٌ يُجنّ أخبت الأمراض ، عليه خرقة تحمل بذور أفتك
الأمراض ، فشأنه شأن ضغث من الهشيم قد اشتعلت فيه النار ، والرياح
ترمى بشره هنا وهناك ، فلا تأتى عليه النار إلا وقد تسعرت فى كل
ما حوطا من الأتباء .

مخلوقات معذبة ، وهى فى الوقت نفسه حشرات سامّة تفتى
العلل والأوباء فى جاعات الأصحاء .

والآن يحسن بنا أن نلم إلمامة يسيرة بالناحمة الخلقية من هؤلاء
الطفل المشردين . فليس الخطب فى الصحة بأشد من الخطب فى
الأخلاق . وأنت خير بأن هؤلاء لا يخرجون إلا من أحط البيئات ،
وأشدّها جهلاً ، وأعظمها إمعاناً فى الفقر والأعواز . وهل يبعثهم على
عيشن التشرد إلا أن كافليهم قد ثقلوا بهم ، وصفرت أيديهم عما يرزقهم
ويجمع شملهم ؟ ولقد يكون هؤلاء لكافلون من الآباء أو الأعمام

في الطفولة المشردة

١٣٩

أو الأخوال أو الأخوة الكبار أو أزواج الأمهات — قد يكونون ممن يؤثرون الدعة ، ولا يحشمون النفس سعباً ، فلا يرون إلا أن يتركوا هؤلاء الأطفال في الطرق لبشحتوا ويجمعوا أعقاب السجائر ، ويسلوا من جيوب الغافلين ما تطوله أيديهم ليظلموا هم في أكسار الأكواخ ضاجعين هائثين !

لم تفتح قط عين مخلوق من هؤلاء على دين أو على خلق أو قانون أو أى شئ من آداب السلوك في هذا العالم ؛ فهو إنسان ، إن صدق هذا التعبير ، مفقود الضمير . هو مخلوق لا يفرق بين الخير والشر ، ولا بين الفضيلة والرذيلة . ولا يميز الحرام من الحلال ولا يعرف ما يسوغ في العرف وما لا يسوغ . وإذا كان مسوقاً ، بحكم الغريزة الحيوانية ، إلى ما يسد الجوع ، فانه يلتمس القوت بكل ما يتيه له من الوسائل ، من ككد وجمع ما بعدد على شمله من أعقاب السجائر ، والفحص عن فضلات الطعام ولو في المزابل ، والسرقه ما وجد إليها السبيل . فاذا رأته مكفوقاً عن السرقه والتلصص ، في وقت ما ، فما كان ذلك لأن له ضميراً يزجره ، ويخوفه عاقبة السرقه عند الله وعند الناس ، بل لأنه يرى بعينه أن من يؤخذ في سرقه ، بعاقب بالحبس المرهق ، أو بالجلد الموجد الأليم !

ولقد ترى هذا المخلوق ، إذا خلا بأمناله ، بكأثر بما اكتسب في يومه من الرذائل من سرقه أو غش أو إيقاع أذى بمن لم يلحقه منه أذى ، أو بضليل من استهداه السبيل . يفعل هذا في زهو يشبه الافتتان !

فاذا رأبت هذا منه فاعذره ، فهو لا يدرى ألبتة أنه يجرم ، بل أنه لا يدرى ألبتة ما الاجرام !

وبعد ، فاذا جاشت في صدر هذا المخلوق عاطفة ، فالحقد الشديد على هذا المجتمع الأنيم الذي لا ينفك يؤذيه أو يحاول أذاه أنى وجده ، ويجهد في الحيلولة بينه وبين الكسرة يمسك بها الرمق ، ولو انمساها في وعاء السرجين ، وينفس عليه حتى بالضجعة في ظل جدار على عذار الطريق !

هو مملوء حقدأ واضطعائاً على هذا المجتمع ولو وجد السبيل لحرقة بنار السعير . فاذا كتبت السلامة من العلل لهذا التقي الصغير ، وقدر له أن يشب ويكبر ، فانظر أى صائل فاتك من هذا الغلام يكون ؟ فاتك حاشأ له أن يزجره عن أعظم الاجرام زاجر من ضمير أو دين أو من رحمة أو من قانون !

وبعد ، فان هذا الصنف من الأطفال يشغلون مع الأسف العظيم، نسبة غير يسيرة من مجموع الأمة . فلا ينبغي أن يزهدنا إطراد الزيادة في العدد ، إذا كان قدر عظيم من الزائدين من هذا الطراز ! على أنه لو نيسر لنا أن نسقط جمع هؤلاء من التعداد ، لأنه لا جدوى منهم على الأمة ، بل لأنهم غير أكفاء للحياة . لو تبسر لنا أن نستطهم من الحساب لكان الخطب ، ولكنهم في جسم الأمة عضو متآكل ، لا يلبث أن يمتد بالفساد وأسباب العطب إلى ماحوله من الأعضاء . فهم أداة متقلبة جواله لنشر الأوبئة في الصحة

في الطفولة المشردة

١٤١

وفي الأخلاق . إلى ما يؤذون به غيرهم من السرقة والعدوان .
إذا فكيف الحيلة في دفع هذا البلاء الكبير عن البلاد ؟
اللهم إننى لا أظن أن العلاج النافذ في أن نبت الجمعات ، ونجمع
الأسوال لتتلقط هؤلاء الغلصة من الطرق والأزقة ، ونحشرهم في
الملاجئ والمصحات .

نعم ، ليس يجديننا هذا كثيراً في دفع هذا البلاء ، مادامت هذه
البيئات قائمة على هذه الصورة ، وما دامت الأرحام فيها تدفع الأطفال
من غير حساب !

إن الداء لا يحسم بتلقط هؤلاء المشردين وحشرهم ذلك الحسم ،
مهما تهيأ لنا الملاجئ ويحصل في أبدننا من جلائل الأموال .
لست أزعم أن إنقاذ هؤلاء الأطفال بايوائهم إلى الملاجئ .
وتعليمهم ما يفتح عقولهم ، وينير بصائرهم ، ويوقظ ضمائرهم ، وتمرنهم
في ألوان من الحرف نجديهم إذا انحدروا إلى ميدان الحياة . لست
أزعم أن هذا القدر لا تجدى ولا يفيد . بل أزعم أنه يفيد بعض الفائدة
على أن هذه الفائدة لا تعدد تلطيف العرض ، ولكنها لا تحسم العلة
ولا تجتث جرثومة الداء .

إن من تدفع الأرحام كل يوم من هذه البيئات هم أضعاف أضعاف
من يستطيع الخيرون السعى إلى إنقاذهم على هذا الوجه ، بحيث يرى
المصلحون أن سيلهم سيظل مندفعاً على المدن لا بقطع له مدد .
والرأى الذى أرى ، أن يبدأ المصلحون العاملون ببحث هذه
المعضلة الخطيرة من عند أولها ، لا من عند آخرها ، بالنظر في رفع

المستوى العقلى والصحى فى تلك البيئات الوخيمة ، وتقبيد الزواج
بالقدرة على كفالة الولد ، أو السعى إلى منع تسرب الولد إلى هذه
الحياة ، مادامت هذه سبيله فى الحياة . على أنه يميز ذلك أئمة
الشرع الكريم . ولا ضير ، بل من الخير أن يظل هذا الانقاز
قائماً حتى يكتب للجسم الأمة البرء والشفاء ، من هذه العلل
والأدواء .

في الاجراءات

في آخر تقرير أصدره اللورد كرومر ، المعتمد البريطاني ، عن مصر ، وكان ذلك ، على ما أذكر ، في سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ ، أراد أن بشهر الادارة المصرية تشهيراً قاسياً ، فروى الحادثة الآتية ، قال : ضلت أتانة صغيرة لرجل من أهل قرية في الصعيد الأعلى ، فبادر بابلاغ العمدة ، وهذا أبلغ « النقطة » وهذه أبلغت المركز ، وأنشأ المركز يتخذ الاجراءات اللازمة في مثل هذه الحال ، من التحقيق مع الرجل أولاً ، ومع الجيران ثانياً ، ومع من عسى أن يكون قد رأى من الناس أو سمع تالناً . تم . جعل يرسل المراكز الداخلية في سلطان المديرية ، وهذه تراجع في الأمر ما دونها من نقط البوليس . وبعد لأي جعل يرسل ، بوساطة المديرية ، المحافظات والمديريات الأخرى . وهذه تراجع ما يدخل في سلطانها من الأقسام والمراكز . وهذه تراجع ما دونها من نقط البوليس فعمد القرى ، وهكذا . وبدوم البحث عن الأمانة الضالة ، على هذا الأسلوب ، بضع سنين ! ولقد فاني أن أذكر لك أن صاحب الأمانة قوّسها ، في أثناء التحقيق ، بنلانين قرشاً صاعاً لا تقل ملياً !

ولقد بدا للورد كرومر أن يحصل الجهود والأسوال الى بذاتها

الحكومة فى هذه السبيل ، وكيف سوت أكواماً من الملفات « الدوسيهات » ، وما برى فيها من الأقلام ، وما نفذ من المداد ، وما سود من الورق ، وما اضطرب به البريد فى أرجاء البلاد ، وما استهلك من وقت الموظفين الذين لا يحصون عدداً . ومع هذا لم تهتد الادارة ، إلى نك الحجارة . وهذا مع الأسف العظيم .

وحدثنى الثقة الصادق ، وذلك من تمانية عشر عاماً ، قال : ضلت حارة (أبيضاً) لرجل بقم فى قرية من أعمال إحدى المديريات فى الوجه البحرى ، فأسرع إلى إبلاغ المركز ، وهذا أحال التحقيق على أحد حضرات معاونى الادارة ، ولم يمض غير قليل حتى قدم إلى ديوان المركز ، رجل آخر وهو بقود حارة قال إنه رآها على « السكة الزراعية » وليس يفودها أو يسوقها أو برعاها أحد . فأحيل التحقيق فى هذا البلاغ على حضرة معاون إدارة آخر ، وظل ذلك يحقق إبتغاء الاهتداء إلى الحارة ، كما ظل هذا فى الحجرة المجاورة ، يحقق ، إبتغاء الاهتداء إلى صاحب الحارة . وطالت الحال على هذا أشهراً ، ولعلها كانت تطول سنين ، لولا أن المصادفة السعدية وحدها كشفت عن الصلة بين الحارة وفافدها ، فردت عليه بعد استيفاء الاجراءات أيضاً !

وألقت عصاها واسنقر بها النوى كما فر عيناً بالأياض المسافر

وإليكم . با معسر القراء ، ما هو الذ وأبدع . . .

في الاجراءات

١٤٥

لاحظ مأمور قسم ثانی أوقاف ، وذلك في سنة ١٩١١ ، وكنت يومئذ موظفاً في سكرتارية ديوان الأوقاف — لاحظ هذا المأمور أنه كلما مر في ميدان العتبة الخضراء وجد دكاناً بعينه مغلقاً ، وهذا الدكان داخل في وقف المكاتب والمدارس . فلما كثر ذلك وطال عليه الزمن ، كتب إلى الديوان العام يسأل عن السبب في انغلاق هذا الدكان تلك المدة الطويلة ، في حين أنه مما يغل أعلى الأجور؟

وانتهت المكاتب إلى القسم المختص ، ولكنه بعد البحث والتفتيش الأسابيع أو الأشهر ذات العدد ، لم يهتد إلى السبب أيضاً . فجعل يراجع الأقسام الأخرى التي يقدر فيها علماً بالخبر ، واحداً بعد واحد ، فلم تهتد هي الأخرى إلى شيء أبداً !

وأخيراً ، وأخيراً جداً ، ننبه أحد الموظفين إلى أن دكاناً من دكاكين وقف المكاتب والمدارس في العتبة الخضراء كان يقوم في شأنه نزاع بين الديوان وبين المستأجر ، وهو من رعابا إحدى الدول الأجنبية .

وهنا جد القسم في الطلب ، وأنشأ يقص الأثر أعنى أثر الورق ، حتى انتهى إلى أن ذلك النزاع رفع إلى المحكمة المختلطة وموضوعه تأخر المستأجر عن أداء الكراء . وبعد الحكم ابتدئاً عليه بأداء المتخلف والاخلاء ، رأى أن الرجل قد ببعد أجل التسليم باطالة مدة النزاع ، ولا يعرف له مال يرجع عليه ، وهو لم يدع في الدكان إلا بضعة كراسي ونضد (ترايزة) من القش ، وكل ذلك لا يقوم بأجر أسبوع واحد من أجر هذا الدكان . فرأى قسم القضايا ، إقتضاباً

عبد العزيز البشري

١٤٦

لهذه الخسائر أن يصالح هذا المستأجر على تسلم الدكان . أما المتأخر من الكراء فالعوض فيه على الله !

المفتاح في الدسييه

ولما اهتدى أخيراً إلى حضرة المحامي الذى تولى الصلح عن الديوان ، وسئل كتابة عن مفتاح الدكان ، وقع « أشر » على الورق رحمة الله عليه ، « المفتاح في الدسييه » ! وكذلك تهباً فتح الدكان ، بعد ما أصدأ غلقه طول الزمان !

على طرف وقفه

على أن الرواية لم تتم فصلاً ، فانه لم تمض بضعة أسابيع على هذا الكشف الأثرى الخطير « المفتاح في الدسييه » حتى رفعت إلى المجلس الأعلى مذكرة نوح جبينها بهذا العنوان : « أطلب رفع مبلغ . . . على طرف وقفه » ، وهذا تعبير مصطلح عليه ، كلما عرض ما يدعو إلى التجاوز عن قدر من المال عجز الديوان عن تحصيله لافلاس أو هرب أو نحو ذلك .

أندرون ، يا سادى القراء ، ما مقدار هذا المبلغ الذى رفع على طرف وقفه فى هذه القصة الطريفة ؟ إنه لا يزيد على بضع عشرات وأربعمائة وألف جنيه فقط لا غير !

ولقد كان هناك إلى وقت قريب ، تقليد مأثور ، مقدس مرعى

في الاجراءات

١٤٧

عند الكثرة من موظفي الحكومة . وهذا التقليد المقدس هو « ركن » الورق في الأدراج قبل إنجازها والنظر فيه . وهذا « الركن » تتفاوت مدته بتفاوت العوامل التي تضطر الموظف إلى استخراجه وتحريكه . فإذا ما بادر أحد الموظفين بإنجاز ما بين يديه من غير قوة مرغمة قاهره ، اتهم من هذه الكثرة بالغفلة ، وعد « غشياً » حيناً ، ومجازفاً أحياناً !

وبسبب تعطل مصالح الناس ، بحكم هذا الحال ، وضياح النافع عليهم ، في بعض الظروف ، نجحت في مصر مهنة لا أحسبها معروفة لأية أمة من أم العالم ، وكانت تدر على محترفيها المال بقدر غير يسير . ذلك بأنك إذا طفت في الصباح بالمقاهي التي تقرب من دواوين الحكومة ، رأيت طوائف من الأفندية مجلسون وعيونهم تشك كل صادر ووارد من الناس ، ومن سكان الريف على وجه خاص . وهم يدعون : « الأفندية اللي يجرؤوا الورقة » .

فإذا ما كانت لأحد حاجة في بعض الدواوين أتخف أحد هؤلاء بريال أو بنصفه مقدماً « ليجري عنه وراء الورقة » وسرعان ما لنسمر عن ساعده ، ويهبط على حضرة الموظف الذي بين يديه المسئلة ، أو على الصحيح في درج مكتبه . ولا يزال به حتى يستخلص الأوراق منه . ثم يمضي وراءها إلى موظف آخر ، ثم إلى آخر ، وهكذا لا يزال بجعل بين سى مرسى أفندي ، وسى عبدالمواب أفندي ، وسى خلة أفندي ، وسى متى أفندي يلح في رجاء هذا مره ، ويضحك هذا سره ، ويروى لذلك حديثاً طريفاً ، وتنتفع إلى آخر بأحب الناس

إليه وأكرمهم عليه ، حتى يفضى بالمسئلة إلى الرئيس المختص ، وكذلك ينتهى الأمر بسلام . ويشترى الرجل وقته ، ومنافعه وكرامته التى تبتذل كلما طلع على موظف بين يديه أمره يشترى الرجل كل هذا بدراهم معدودات ، ويستخرج حقه من هوات الآساد ، والله على كل شىء قدير .

وبعد ، فلقد كان هذا كله ، وكان أعجب من هذا كله ، فى وسائلنا الادارية ، إلى وقت قريب . أما الآن فلا أدرى ولا أظن . فاذا كانت قد بقيت منه بقية فأحر هذه النهضات القوية أن تكتسحه بين يديها ، وتظهر الدواوين الحكومية من هذا السعفن الذى يضرب فى مصالح الناس بهذا القدر الجسيم .

خواطر في الصيف

بين الصيف والحر

قبل كل شئ ينبغي أن نفرق بين الصيف والحر . فالصيف هو صدر من العام له من الأيام مبدأ ونهاية رسميان ، يعرفهما أصحاب الفلك ، وتدل عليهما التقاويم ، أما الحر فهو وقدة الجو وسخونة الهواء . على أن بين الصيف والحر علاقة هي أن الصيف ظرف والحر مطروف ، أعنى أن الحر يقع ، عادة في فصل الصيف ، كما يقع البرد ، عادة ، في فصل الشتاء ، وإن كانت تختل هذه العادة في بعض الأحيان ، فيلفح الحر في هذا كما يقرس البرد في ذلك .

وإننى أنتهز هذه الفرصة فأفرر أن من التجوز الشديد تقسيم الفصول في بلادنا إلى أربعة ، أسوة بكثير من البلاد الأخرى : صيف ، فخریف ، فشتاء ، فربيع . وأقول : من التجوز الشديد ، لأننا لا نكاد نحس هنا إلا حرّاً وإلا قرّاً ، فاذا اعتدل الجو في بعض الأيام فذلك نادر لا يستقيم به القياس في الأحكام . وإلا فخيرنى بعيشك أين الربيع في مصر ؟ اللهم إن أكرهه لمحدود في وقدة الحر ، وصدره منكمش في قبضة الشتاء !

ثم أين الخريف ؟ أستغفر الله ، فالخريف في بلادنا أعرف من

أن تلتمس له وجوه التعريف ، فهذه الحميات أشكال وألوان ، وهذه الأوباء صنوان وغير صنوان ، من تيفود وتيفوس ، ومن أنفلونزا تقصف الأعمار وتحترم النفوس .

الصيف

ولقد تسألنى : أى الفصلين أحب الفصلين إلى أهل مصر ؟ فأجيبك من فورى غير متردد ولا متفتر : إن أحب الفصلين إلى المصريين ، على وجه عام ، هو الصيف . الموسرون والبائسون فى هذا الايثار بمنزلة سواء ، وإن اختلفت فيه السبل ، وتباينت الأسباب والعلل .

فالموسرون يحبون الصيف لأنهم يشدون فيه الرحال إلى أوروبا ليصيبوا من اللهو واللذة إلى منتهى الجهد ، ويلبغوا الصبا أو التصاى غابة الأثر ، فإذا صرفهم عن الشخصوص إلى الغرب صارف ، فهناك المتسع فى قصور الرمل ، والتقلب فى المتع على سيف البحر (البلاج) . وأما ثلاثة أرباع الموسرين وأنصافهم ، وأعنى جمهرة الموظفين ، فيحبون الصيف لأنهم ينحرون فيه من كد العمل ، ويخرجون فيه بالاجازات السنوية إلى الغرب أو إلى الثغور المصرية ليصيبوا مايصيب الموسرون ، فمن لم يستطع هذا ولا هذا فحسبه الراحة والدعة ، وهيئات أن تضيق به الدنيا وفى الضواحي سعة . وطلاب العلم وسائر التلاميذ ، فى الصيف عتقهم من رق المذاكرة والدرس ، وإطلاقهم من إسار الجسم وإسار النفس .

خواطر في الصيف

١٥١

هذا ما كان من أمر الموسرين وأشبه الموسرين ، والوجه في
في إيثارهم للصيف وتعجلهم لمقدمه طوال العام . أما المقترن البائسون
فلعل حبهم للصيف أشد ، وإيثارهم له أعظم . فقد علمت ، حفظك الله
أن برد الشتاء يحتاج إلى التدثر وتلفيف عامة الجسم بمختلف الثياب ،
وقد لا يغنى منها إلا المتين الصفيق ، كما يحتاج إلى اتخاذ الفراش
وإنقال الغطاء ، والتماس وسائل الدفء خلاصاً من حدة البرد وتقدياً
من أذى الضر .

ثم إن البرد كما تعلم ، يفتح اللهاة ويهيج الشهوة إلى الطعام ،
ويسرع بالهضم ، وتدعو الطبيعة فيه إلى سوالة الأكل تحريكاً للدم ،
وبعثاً للحرارة في الجسم ، وكيف للمعسر ، إذا واثق نفسه بكل هذا
بمواتاة الولد ، وسد جوعهم ونهمهم ، ومطاوعة شرهم وقربهم ،
إلى ما يقتضى من النفقة في الثوب والرداء ، والفرش والغطاء ، والقدة
والاصطلاء ؟

أما الصيف وحبذا وقده الحر في الصيف ، فهي كما تعلم أيضاً ،
مما يسد اللهاة ، ويقبض شهوة الطعام ، ويفتر الجسم . ويخذل
المعدة ، ويأبى عليها الحركة إلا بقدر يسير . فهي في هضم الطعام
محتاجة إلى الزمن الطويل ، فاذا زاد الطعام في المقدار أو أكثر فيه
الدمس أثقلها وأبهرظها ، وأغناها بالوجبة الواحدة في اليوم الأطول .
وأما الرداء فضيره أخفه وأسفه . وأما المنام فعلى جلدة السطح
أو بين يدي الباب ، وإلا ففي عذارى الطرق متسع للجميع .
أصدفت الآن أن الصيف أحب إلى الفقراء أيضاً ، وأثر عندهم

لرفقه فى أبواب المعيشة بهم ، وتخفيفه فى وجوه النفقات عنهم . ولاتظن أن وقدة الحر ترهقهم كما ترهقك ، وأن سدة القبط تبلغ منهم بعض ماتبلغ منك . فانه لا يصنع بك هذا إلا تعود الترف وإرسال النفس فى فنون النعيم . وحسبك أن تنفضل بزبرة شارعنا فى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر يوم حلقت حرارته إلى السادسة والأربعين ، لترى هذا الذى يحمل على رأسه هرمًا من البرتقال أو الموز أو التفاح . وهذا الذى يدفع بين يديه قطارًا من « الشام » أو « العجور » أو « الخيار » . وذاك الذى يقود برذونًا يجر عربة بترول ، وهو لا يفتأ يلهمه بالسوط ليتحرك ، لأن هذا البغل إنما يضيق بالحر ويتخاذل به بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن صاحبه . حبذا لو جرت بشارعنا فى تلك الساعة وسمعت من حناجرهم ذلك الصرخ ، لتشفق على النوام من سكان الأرض والايقاظ من سكان المريخ ، ولجزمت من آن واحد من هؤلاء لو كان يستشعر قيظًا أو يحس حرًا ، ما استطاع دفعًا ولا استطاع جرًا ، ولكان جهده نفثًا ، وصياحه هثًا ! آمنت بالله المعين !

مصايف

على أن الله الذى قدر الأرزاق على بعض عباده قد مد لهم أسبابًا من المتاع والسلوى والتفرج من كد الأيام . وإن للمعسرين من أهل القاهرة وغيرها من كبريات المدن لمصايف جميلة لا يكلفهم غشيانها من النفقة جليلا ، بل إن شاءوا لا يبشهم فتيلًا . وحسبك

خواطر فى الصيف

١٥٣

أن تسلك فى ساعة الغروب من أيام الصيف هذه « الكبارى » التى تصل بين شقى القاهرة ، لترى أفاريزها تموج موجاً بالواقفين المطلعين على النيل ، المتنسمين نسيمه العليل . وأكثرهم من الشباب وأكثرهم هؤلاء تجدهم *chacun avec sa chacune* ! ومن سنين يسيرة كنت ترى جميع هذه « الشاكينات » ملففات فى الملاء . أما الآن ، فترى كل ملاءة قد انحسرت عن فستان أو شبه فستان !

وقلت لك إن هذه المصايف لا تجشم الرواد شيئاً ، فالرجل همى المركب فى الغدو والرواح . والمرتج ظهر « الكوبرى » فإذا أتحفت « الشكينة » من الحلوى بما يساوى « تعريفة » ، فبذا الهدية الثمينة والتحفة الطريفة !

وأخيراً فانى لا أحب أن أنصرف عن هذه الخواطر العجلى دون أن أنبت ملاحظة ، أو على الأصح ، دون أن أدل على ظاهرة طبيعية اختص الصيف بها مصر دون سائر بلاد الله .

هذه الظاهرة العجيبة أن هناك اتفاقاً وثيقاً لا شك أنه أوتق من اتفاق دولتى المحور ، بل إنه لأشد وثاقة من الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا القائم فى هذه الأيام . وهذا الاتفاق الوثيق المتين معهود بين الطبيعة و « وابورات » الثلج فى مصر . ومفتضاه أنه بمجرد ارتفاع درجة الحرارة إلى الحد المرهق تنكسر « وابورات » الثلج من تلقاء نفسها كسرا لا يجره إلا اعتدال الجو وابتعاد الهواء . وبرغم أصحاب تلك « الوابورات » وبرغم الشلاجين المساكين يرتفع تمن « اللوح »

عبد العزيز البشري

١٥٤

إلى العشرين والثلاثين والأربعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلی العظیم .
أصدقت الآن أن هذا الاتفاق أوثق خمسين مرة من الاتفاق .
بين من ذكرنا من الدول !
وحاشا أن يبلغ اتفاق الساسة سهماء كانوا من الأبرار ، إتفاقاً
تعقده الطبيعة وتبرمه الأقدار !

فى التليفون

لقد أدركنا من صدر نشأتنا جمعيات كانت هنا وهناك من أحياء القاهرة وغيرها من المدن الكبرى . وهذه الجمعيات كان يغشاها كل من يشاء ، إذ تلتقى فيها الخطب ، وتعقد المناظرات ، يتولى أطرافها فى الغالب ، مستخدمو الطلاب ، وحديثو العهد بالتخرج من المعاهد والمدارس .

ولعل أهم الأغراض من قيام تلك الجمعيات ، إذا لم أقل غرضها الفذ ، إنما كان التمرين فى الخطابة ، وتعويد الألسن الانطلاق فى المجمع والمحافل . فكنت تسمع المحاضرة فى منافع الهواء ، وفى سزايا الشمس ، وفى فضل الماء على الخليقة مثلاً . كما تسمع المناظرة فى المفاضلة بين السمك واللبن ، ولا تنسى « فيض اللبن ، فى تفضيل السمك على اللبن » ، والموازنة بين القطار والنلغراف « السلك والوابور » .

وأرجو أن تصدقنى إذا زعمت لك أنه كانت تعقد المناظرات أيضاً فى المفاضلة بين العلم والجهل ؛ على أنه كان يتقدم للكلام فى تفضيل الجهل على العلم من يظن أنه أنطق المتناظرين لساناً ، وأطلقتهما بياناً ، وأسطاهما قولاً ، وأحضرهما حجة . حتى إذا ما ظهر على خصمه ،

وأدحض على فضل العلم دليله ، كان ذلك دليلاً على فضله هو وسبقه في حلبة البيان ! وما ضر مادام الغرض التمرين في الخطابة ، وشحذ ملكة الجدل ، والتماس وجوه الأدلة على صحة الرأي واقعاً حيث وقع من الصواب والسداد ، أو من البطلان والفساد ؟
وبعد ، فلا ريب في أنه أصبح سمجاً كل السمج بكاتب أن يقول اليوم في منافع التليفون ، وما يوفر من الوقت في الكثير من قضاء الحوائج ، وما يسرع بالأسعاف في الكوارث ، ويعين على ضبط الأمن وكف العوادي ، ويؤذن بالأسعار ، لوقتها ، في التجارات الهامة فلا يغبن بائع ولا يشار ، ويسر المشافهة بين الأقرباء ، والأصدقاء ، والأحباء ، على بعد المسافة ، وطول المدى ، الخ . الخ . الخ .
إذا كان سمجاً بكاتب أن يعرض لمثل هذا في الزمن الذي نعيش فيه ، فما أحسب أنه سمج بأحد أن يشكو التليفون ، وما يبلغ من أعصاب الناس هذا التليفون !

ولعل قارئاً يقول : ما بال فلان يعبر عن هذه الأداة بكلمة « تليفون » ، ولا يعبر عنها « بالاريز » التي اختارها الجمع اللغوي ؛ وهو أول الناس باتباع ما بقر الجمع من تسميات ؟
وفي الحق ، لقد كانت هذه الكلمة شؤماً على الجمع ، وكانت مفتاحاً لكل ما أسطر من تندر وتقليل لا أشك في أنهما كادا يعوقان سعيه ، إذا لم يكونا قد عاقا منه بقدر عظيم أو يسبر ؛ إذ الجمع برىء ، برىء ، برىء ؛ فلا هو أطلق على التليفون إريز ، ولا هو نظر قط في لفظة « إريز » ، ولا عرض ، ولا عرض ، إلى هذه الساعة ،

فى التليفون

١٥٧

لتسمية التليفون وكيف يدعوه . وكل ما فى الأمر أن للمجمع مجلة يصدرها طوعاً لحكم الرسوم الصادر بالشاء . وهذه المجلة مقسومة إلى قسمين : قسم رسمى ، وينشر فيه ما يصدره المجمع من قرارات ، وما ينتهى إليه رأيه فى التسميات والتعبير عن المصطلحات . وقسم غير رسمى يكتب الكاتبون فيه من أعضاء المجمع وغيرهم ما بدا لهم من بحوث لغوية ، وبفترحات فيه ما نشاءون من تسميات ومصطلحات ولا يعد المجمع مسئولاً ، ولا يمكن أن بعد مسئولاً عن شئ من هذا ، ولا يقال إنه صادر عنه بحال . وكلمة « الارزيز » ، خيبة الله عليها ، هى من هذه المقترحات فى القسم غير الرسمى ، لا أكثر ولا أقل ، أما « شاطر ومشطور وبنهما طازج » وأخواتها ، فهى من بدع النكنة ، ومن خلقى المفلسين !

نعود ، بعد هذا ، إلى التليفون ورزاياه ، بعد أن آمن كل الناس بمنافعه ومزاياه :

التليفون : عصمك الله من كل مكروه ، كما تعرف ، أداة سريعة للتخاطب ، سواء فى قضاء الحوائج ، أو فى دفع الكوارث ، أو فى الاستنجد فى الأحداث ، أو نحو ذلك ؛ على أن الكثيرين منا نحن المصريين ، والسيدات على وجه خاص ، لا يفرضون له ذلك ألبتة ، بل إن بعضهم وبعضهن لينظمونه فى جملة الآلات الموسيقية ، كالعود والقانون والبيان ، كما دعاه المجمع اللغوى ، والكان مثلاً . فاذا أنعم الله على سيد أو سيدة من هؤلاء بالتليفون فى دار صديق أو غير

عبد العزيز البشرى

١٥٨

صديق ، جعل يتحدث ويتحدث ، ما بكل ولا يمل ، ولا يتعب
ولا ينصب ولا تقفه شهقة ، ولا يختلج له فك ، ولا ينقطع له نفس ،
بل لعله فى لذته واستمتاعه أفرح من مستمع إلى عود صناع ، أو
قانون ضارب حسان !

ومما حدثنى به الثقة الصادق أن سيدة من صديقات أسرته ،
تختلف إليها للزيارة فى أكثر الأيام ؛ وما بلغت الدار قط إلا عدلت
من فورها إلى التليفون ، فتكلمت ثم تكلمت . حتى إذا أذن الله للكلام
بختام ، رفعت السماعة ثانياً ، وافتتحت مع آخرين حديثاً آخر ، وهكذا
حتى إذا تمت لها ثمانية أحاديث أو عشرة ، قامت فجلست إلى صواحبات
الدار ، وما إن تفرغ من شرب القهوة بعد السلام وبث الأشواق ،
وما إلى ذلك ، حتى تهرع إلى التليفون أيضاً ، فتعيد ما بدأت ،
وتستأنف من الأحاديث ما قطعت ، وهكذا ! . . .

قال صاحبي : ولقد أقبلت هذه السيدة ذات يوم ، وأنا جالس
فى غرفة قريبة من آلة التليفون ، بحيث أسمع برغمة الحديث فى يسر ،
فأنا أشد الناس كراهة للتسمع على الناس ، ورحت أعد « النمر » التى
تطلبها ، فإذا هى ست عشرة ، قد استهلكت جملة الأحاديث فيها
ما يقرب من الساعتين . وأنى أستطيع مطمئناً على دينى وضميرى أن
أحلف لك ، بكل ما يحلف به البار والفاجر ؛ على أنه ما سقطت إلى
أذن من كل ذلك كلمة واحدة تدعو إليها ضرورة ، أو تبعثها حاجة ،
أو تنفع فى أى شئ ، أو تضر فى أى شئ ، أو يترتب عليها فى يوم
من الأيام أى شئ !

فى التليفون

١٥٩

وحدثنى صديق من الظرفاء قال : كنت جالساً فى مقهى (كذا)، وكان ذلك فى شهر يوليه ، وكان اليوم شديد الحر ، وبدأ لى أن أتحدث فى التليفون إلى صديق فى شأن عاجل ، فاذا مقصوره التليفون مشغولة برجل يتحدث جاهداً ، ويهز رأسه هزاً عنيفاً ، كأنما يوقع به على نبر الكلام ، أو يمस्क « الواحدة » على تعبير أصحاب الموسيقى . وانتظرت طويلاً عله ينتهى ، فلم ينته ، فعدت إلى مجلسى حتى مضى نصف ساعة أيضاً ، ثم نهضت فنقرت له على الزجاج أتعجله فالتفت إلى ، وإن كان فمه لم يلتفت ، وجمع أطراف أنامله ، وأشار إلى بالتمهل ، فأسهلته ، حتى سمعته يحى صاحبه تحية الختام ، ثم لم يرعنى إلا أن يستأنف الحديث فيقول لصاحبه : « إلاقلى » ويمتد الحديث شوطاً آخر ، فاذا أذن الله وسمعت منه « نهارك سعيد بقى » مثلاً ، فتنفست الصعداء ، كما يقولون ، عاد فقال : « لكن ماقلتلش على كذا » ، وهكذا حتى كدت أخرج من جلدى ، ولم يغطى أكثر من أن أسمعته يقول فى وداعه لمحدثه : « بكره إن شاء الله نتقابل فى محل كذا » ، فاقتحمت عليه المقصورة ، وقلت له : « يا أخى ! لقد سرقك الكلام ، فلقد صرنا بعد بكرة ! »

ولانتظن أن هذا الرجل ونلك السيدة من السواذ فيناحن المصريين ، وأرجو ألا يغيب عنك أن هذه الاطالة التليفونية قد تجر أحياناً إلى أخطار ، بل لقد تجر إلى أشد الأخطار. فلقد نطلبك قريب أو صديق ، أو أى إنسان بينك وبينه عمل ، ليحدثك فى أمر عاجل ، فلا يصل إليك ، حتى يفوت الوقت وتفلت الفرصة ، وتضيع النفعة أو تقع المصرة !

ولقد يحدث لبعض أهل الدار حادث من جرح ينزف الدم ، أو يكسر العظم ، أو تسمم ، أو نحو ذلك ؛ فيلتمس طبيب الأسرة في المنقعي الذي اعتاد أن يقضى فيه بعض الليل ، فإذا التليفون يئز الساعات الطوال ، مايسكن في أننائها لحظة ولا ينقطع ، ذلك بأن « دُعُفًا » من زبائن القهوة يحدث صديقاً . . . فإذا شاء الله ، وبدا له أن ينتهي ، تلقفه منه آخر من طرازه وضربه . وهكذا . . .

هذه بعض رزايا التليفون من ناحية الاطالة في الحديث في غير جدوى ولا ضرورة أبداً .

وهناك رزايا أخرى ، نعرض نماذج يسيرة منها ، والله المستعان :

لقد يدق جرس التليفون في الصباح الباكر ، وأهل الدار نيام ، في السادسة إذا كان الوقت شناء ، وفي الخامسة إذا كان صيفاً ؛ فيهبون مذعورين ، وقد جفت قلوبهم ، وزاغت أبصارهم ، وندارت أنفاسهم لأن التليفون ، في مثل هذه الساعة ، لا يمكن أن يقضى بخبر ، بل قل أن يقضى فيها إلا بالشر الكبير ، والعياذ بالله . ويتقدم أشجع أهل الدار ، ويتناول السماعه بيد مرعشة ، ويقف سائرهم وقفرة منتظري الحكم في الجنايات الخطيرة . ثم إذا هم يسمعون : « لا ، النمرة غلط » ، فينصرف كل منهم إلى سريريه ، أو إلى بعض شأنه ما يتكلمون ، فقد عقد الذعر ألسنتهم ، واشتف دماءهم ، فما يقوى أحد منهم على الكلام .

وكل ذلك لأن البارد السمج الذي يطلب التليفون ، في هذا

فى التليفون

١٦١

الوقت ، لا يحشم نفسه التحرى عن الرقم المطلوب ؛ ثم إدارة الآلة طوعاً له ، فيكفى الآمنين كل هذا البلاء !

ولقد يدق جرس التليفون ، فتجيبه ، فيجربى الحديث هكذا :
— أنت س عطوة ؟

— لا !

— أمال أنت مين ؟

— أما مش س عطوة وبس !

— طيب ما تقول أنت مين ؟

— يا أخى ! أنا لست س عطوة الذى تطلبه وكفى !

— ده مش محل فلان ؟ (ويعين متجراً أو مصنعاً .)

— لا ياسيدى ، هذا منزل !

— منزل مين ؟

— منزل لا تتأن لك به ياسيدى !

— أما شئ بارد ! أما ابن . . . صحيح ! ويسرع إلى قطع

طريق الحديث . والحمد لله !

ولقد يطلبك الطالب ، فيسألك : أأنت فلان ؟ فإذا سألته اسمه ،

أبى أن يجيبك ، أو تبدأ أنت أولاً بالجواب عما سأل ، وتراجعه فى هذا

فيلج ويأبى ، إذ العرف واللباقة يقضيان بأن يفضى باسمه هو أولاً ،

ليدع لك الخيار فى حديثه أو الانصراف عنه .

ومما يتصل بهذا المعنى أن يطلبك طالب ، فإذا سألته الخادم

عن اسمه ، كان جوابه :

(عبد العزيز الشترى - ٦)

— بس قل له واحد عايزك . ولا يأذن باسمه أبداً !
ومما يتظرف به الكثير أن يطلبك بعضهم ، وقد تكون مشغولاً
جداً ، فإذا استوثق من شخصك ، بدأك بالتحية ، فتحييه بأحسن
منها أو مثلها ، ثم كررها على ألوان وصور شتى ، ولا يسعك إلا
أن ترد عليه التحية بالتحية ، ثم ما يروعك إلا أن يفاجئك بهذا
السؤال :

- طيب أنا مين ؟
- باسیدی ، قل لی حضرتک مین !
- بقى مش عارف أنا مين ؟
- بماذا نأمر يا سيدى ؟
- لازم تقولى أولاً أنا مين !
- لعل خللا فى أسلاك التليفون يغير من صوتك ، فاعمل
معروف وقل لى من أنت ؟
- طيب افكر كده !
- ولا يزال يلون لك هذا العذاب ، أو يخبره من هو ، أو بعبارة
أخرى لتلقنه اسمه ، وتقدم إليه شخصه ، وتعرفه نفسه !
وكيفما كان الحال ، فقد أضاع وقتك ، وأثار أعصابك ، وأفسد
تفكيرك ، وأحبط سعيك ، وحال بينك وبين معاودة عملك ، وهكذا
يكون التظرف ، وكذلك يكون الظرفاء !

أما حوادث الخدم ، إذا كنت غائباً عن الدار ، أو كان مستعدراً

في التليفون

١٦٣

عليك الوصول إلى التليفون لوفتك — أما حوادثهم في تسجيل أسماء
 المتكلمين في ذكراهم ، وفي تسجيل رسائلهم ، وفي التبرع بالأجوبة
 عنك ، فأيسرها ما يكدر بين الأخوين ، ويفسد ما بين الصديقين ،
 ويحبط ما عسى أن يكون لك من سعي ، وبطل ما عملت من عمل ،
 لعلك نطت به أعظم الأمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !
 وبعد ، فإذا كان لي أن أسأل الله لمجموعنا شيئاً ، فاني أسأله
 أن يعلمنا كيف نمشي في الطرق المحافلة بأسباب الدوس والصدام ،
 وأن نلتزم في التليفون القصد والدقة وأدب الكلام .
 وما ذلك على الله بعزيز !

كيف نمشي في الطرق

من الملاحظات ، أو التشهيرات التي كان يتحفنا بها اللورد كرومر في تقاريره السنوية ، أن أكثر الركبان في المدن (يعني ركاب الدواب من الجمال والحمير) إنما يسرون على الطوار (الرصيف) أما الرجال (الذين يمشون على أقدامهم) فلا يحلو لأكثرهم السعي إلا في وسط الطريق !

ولو قد بسط في عمر اللورد إلى هذه السنين ، لرأنا قد برئنا ، والحمد لله ، من نصف هذه العلة ، وليس بمستنكر على الله أن يبرئنا من النصف الآخر في بضع سنين !

وإذا كنت أعرض للأخطار التي يستهدف لها السابلة ، في القاهرة على وجه خاص ؛ فليس معنى هذا أنني أعرض الساقة ، على اختلاف آلاتهم ، من المسئوليات ، فهذا سائق سيارة يطير طيراً ، لا يبالي أحداً ولا يبالي شيئاً ؛ كأن الله تعالى قد بسط هذه الأرض كلها وحده ، وصقل له وجهها مستقلاً ، فلا تعترضه حفرة ولا نتوء ، ولا يعوقه شجر ولا حجر . وما تقوله في ساقة السيارات تقول أشنع منه في قادة « الموتوسيكلات » . وأما الغلمان الذين يججلون بالدراجات فأولئك ندع حديثهم إلى القول في سالكى الطرق على وجه عام .

أما الترام ، وما أدراك ما الترام ؛ فكثيراً ما يرى «الكمسارى» بعينه الرجل ، وقد يكون شيخاً كبيراً ، وقد يكون رجلاً مريضاً ، وقد تكون امرأة حاملاً ، وقد يراها تحمل طفلاً ، وتأخذ بيد آخر ؛ قد يرى بعينه أحداً من هؤلاء يهيم بالصعود إلى المركبة ، إذ رجليه الثانية لما تزل ثابتة على الأرض ، فيسرع إلى النفخ في صفارته ، وسرعان ما يتحرك القطار ، وأنف أرواح الناس ، وسلامة جوارحهم من البتر والتهشم ، راغم !

ودعنا من سائق السبارة يضرب بجهد سرعته في زحمة الناس ، إذ هو مقبل بالحديث على من بجانبه أو مولٍ ظهره وجه الطريق ، مستغرقاً في الحديث مع من في داخل العربة .

هذا كله معروف مشاهد ، لا نرى محلاً للاطالة فيه ، وإقامة الأدلة عليه ، وما لهذا سقنا الحديث ، إنما سقناه لهذه الكثرة الكثيرة التي لا يجلوها السعى إلا في وسط الطريق ، برغم احتشاده بالمهلكات المتلفات .

ولقد يلمس يلمس هؤلاء عذراً بأن الطوارات (الأرصفة) في القاهرة أكثر حفراً من وسط الطريق ، فهي أدنى إلى عثرة القدم ؛ ولعل آخر يلمس العذر في أن طواراتنا دائماً أشد وساخة وأكثر فاذورات من عرض الطريق ؛ وهذا ، مع الأسف العظيم ، مالا أحسبه يقع في بلد آخر ! وكيف كان الأمر ، فإن هذا وهذا لا يصلح عذراً للتعرض ، على هذه الصورة ، لكل ذلك البلاء المحيق !

وإذا تملنا هذه الكوارث التي تقع كل يوم في شوارع القاهرة

وجوادها ؛ فان من الظلم الواضح أن نضفيها كلها إلى جنون السائقين ،
أو إلى عجلتهم ، أو إلى قلة كفايتهم ؛ بل إن من الانصاف أن نفرض
قسماً كبيراً من أسبابها إلى أولئك الساعين على الأقدام ، وإلى
أولئك الذين يحجلون بالدراجات فى مزدحم الطريق .

وبعد ، فلعل بعض قراء « الثقافة » ما برحوا يذكرون أننى
ختمت مقالى السابق « فى التليفون » ، بالابتهاال إلى الله تعالى أن
يعلمنا كيف نمشى فى هذه الطرق الحافلة بأسباب الدوس والصدام ،
كما يعلمنا فى التليفون القصد والدقة وأدب الكلام . والآن أعرض
نماذج مما يجرى فى طرقاتنا وبعضها مما « بشيب الطفل من قبل المشيب » .
ولقد عرفت ، بل لقد رأيت ، إن كنت من سكان القاهرة أو من
يغشونها كيف يهجر الساعون مع أقدامهم الطوارات ، وتدفقون
فى عرض الطريق ندقاً ، ما يبلى أكثرهم ما عسى أن يعتريه من
قدامه أو من وراء ظهره ، أو من يساره ، أو من يمينه من تلك الفواتك
بالأعمار ، والمفرقات للأعضاء ، والمحبلات للأجسام الصحيحة فى
لحظة إلى أشلاء بجانب أشلاء !

ولقد ترى الماشى بين سريطى الترام ، وهو يسمع دويه من
وراء ظهره ، إذ السائق جاهد فى دق الجرس وبوالاه هذا الدق ،
وصاحبنا لا يعدل ولا يتحول ، كأنه استحال هو أيضاً تراماً لا يستطيع
السير إلا على الشربط ؛ وفى اللحظة الأخيرة ، اللحظة التى يعقبها
البلاء الفاتك ، يسمح حضرته بالتحنس فى ثقائل عظيم ، ثم تراه
يعود إلى سبيله ، وهكذا ! . . .

وكثيراً ما ترى ناساً يمشون في يمين الطريق وتقبل السيارة في جريها ، من ورائهم ، والسائق ينهبهم جاهداً إلى إخلاء السبيل بالاعتصام بالطوار ، أو على الأقل ، بالمشى بجانبه ، ينهبهم جاهداً بالبق مرة ، و«بالكل كس» مرة ، فلا يسمعون ولا يحفلون ، إذ السائق المسكين أحياناً ، بين ثلاث : إما أن يسرع إلى وقف السيارة فجأة ، وقد تنقلب في هذه الحالة ، وخاصة ، إذا كانت مسرعة ، وفي ذلك هلاكه وهلاك من معه من الركاب ، وإما أن يعدل هو عن الطريق مفاداة هذه العمد الساعية على الأرض . وقد يصطدم بجدار أو حامل مصباح ، أو يدوس من لا جناية له من السائقين ؛ وإما أن يتوكل على الله ويدوس في طريقه من يدوس من هذه العمد . ولعل هذا أرفق الحلول ، إذا لم يكن من إحدى تلك الحالات الثلاث محيص !

ولقد أذكر أنني كنت ذات صباح شاخصاً إلى الجيزة ، فإذا الترام مزدحم جداً ، وأكثر زاحمية من الطلاب الذاهبين إلى مدارسهم ومعاهدهم هناك ، فلم أصب لي مكاناً إلا وقفة بجانب السواق . ولم يرعني ، ونحن في بعض الطريق ، إلا أن أرى رجلاً مقبلاً على الترام من قدامه ، وقد تحرى المشى بين الشريطين ، والسائق يجهد في دق الجرس له ، وهو لا يعدل ولا يتحرّف ولا ينثنى ، حتى إذا اقترب منه الترام ، أو على الأدق ، حتى إذا اقترب هو من الترام ، اقشعر جسدي ، وقف شعر رأسي ، فأسرعت إلى المفناح ، ورجعته في عنف ليقف القطار ، فالتفت إلى السائق وقال لي ، في شيء

من الغضب : ما الذى دعاك إلى هذا ؟ قلت له : ألم تر كيف أن الرجل كان عازماً على أن يدوس القطار في غير إشفاق ! فاشكر لى أن نجيتك كما نجيت نفسى وسائر الركاب من هذا الخطر العظيم !

أما الذين يحاولون قطع الشارع من العبر للعبر ، فأولئك شأنهم أعجب وأغرب ، وصنيعهم ألد وأطيب . ومن الطواهر التى تسترعى النظر حقاً في هذا الباب أنك تجد هؤلاء دائماً مستعجلين جداً ، وشجعاناً مقادير ، لا يهابون أشنع الموتات في سبيل . . . لا سئ مطلقاً من الأشياء ! . . .

يريد أن يعبر الشارع ، فسرعان ما يعبره ، ما بجشم نفسه الالتفات ذات اليمين ولا ذات الشمال ؛ ولعل أكثرهم يفحص عينه من وقت العبور ، لكيلا يرى الفواتك الجارية من هنا ومن هنا ، وهذا ممكن ، ولعله في بعض الأحيان حسن . على أن هناك أسراً غريباً ، لا بد أن بكشف العلم عن سره في يوم من الأيام . ذلك بأن الانسان يستطيع أن يفحص عينيه لكيلا يرى ، فهل ترى لآذان هؤلاء الناس جفون أيضاً ، يستطيعون أن يطبقوها لكي يستريحوا من استماع دوى الترام وجرسه ، وزد الانومبيل وكلاكسه ؟

وإنك يا سيدى القارئ لترى في كل شارع ، في كل يوم ، وفي كل ساعة ، وفي كل دقيقة ، من لا يرضون أن يطمئئوا في سوافهم حتى يجوز الترام ، أو تجوز السيارة ، سهما تكن سرعتها وقرعها منهم ؛

عبد العزيز البشرى

١٧٠

بل لا بد من الففز أمامها وقطع الشارع فوراً . ولماذا ينتظر المرء دقيقة أو بضع ثوان ، والوقت كما تعرف من ذهب ؟
ولقد كنت فى يوم من أيام الأسبوع الماضى أمشى فى شارع قصر ابن العيني ، على الطوار طبعاً ، وإذا الترام القادم من ميدان الاسماعيليه يجرى بأخر جهده ، وإذا شيخ مرسل اللحية ، محفوض السارب ، يضع على فبائه (قفطانه) معطفاً ، وعلى رأسه طربوشاً ، وفى يمينه عكازة ، وفى يساره مسبحة تتلقت أنامله حبانها دراكا . وأنت خبير بما تفعل مع ذلك شفاه ، أما ما يسغل القاب فلا يعلمه إلا الله ! — أقول وإذا هذا الشيخ يقفز من بين يدي الترام قفزة عنيفة نجابها ، والحمد لله ، وإذا كان ظله القصير لم ينبج من وطء العجلات الأولى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !
ولقد لحقت به ، وقلت له :

— يا عم ! قد يجوز أن يكون حسابك دقيقاً مضبوطاً فى قياس سرعه الترام ، ومقدار المسافة التى عليك أن نقطعها بين يديه ، ومدى جهدك فى القفز ، والمدة التى تحتاج إليها فى ذلك . لقد يكون حسابك فى كل أولئك دقيقاً مضبوطاً ، ولكنك لم تدخل فى هذا الحساب عنرة الرجل مثلاً ، أو اعتراض سياره مفاجئة من شطر الطريق الذى تطلبه ؛ فكيف كانت تكون الحال ؟ فأقبل على وقال :

— أى والله با ابني ! صدمت . ولكن . . . ربنا يسر ! . . .
أسنت بالله ! . . .

وأرجو ألا ننسى أن هذه الكلمة « ربنا يسر » ، هى فى هذه

كيف نمشى فى الطرق

١٧١

البلاد نعمار كل ملق بنفسه إلى التهلكة ، أو بغيره إلى الهلاك .
ومن بضع عشرة سنة ، كسرت أركب الترام ، وكان مجلسى
خلف السائق مباشرة ؛ وبينما كان يجرى بأقصى سرعته فى شارع
كلوت بك ، إذا فتى يحوز من أمامه ، ولولا أن السائق أسرع فضبط
العجلات « بالفرازل » ضبطاً عنيفاً رج الركب رجاً عنيفاً ، وأزعجهم
إزعاجاً شديداً ، لصار هذا الفتى (المسعجل) لخطته ألقاضاً على
ألقاض .

إذاً لقد وقف القطار ، وسر الفتى لم يكف أى عضو من أعضائه
كلما ؛ بل لقد امتاز على هؤلاء الراكبين بالدعة ، فما وجف له قلب ،
ولا نبض فيه عرق ، ولا اسقع لونه ، ولا جف ريقه . ولقد بدا لى أن
أنزل فأتبعه لأرى ما الذى أعجله من جلى الأحداث العالمية ، حتى
خاطر بحياته بهذا القدر المرعب المهول .

وأتبعه حتى بلغ الطوار الثانى ، فاذا هو فتى متشرد من هؤلاء
الفتيان المتشردين ، خلق الشوب ، حافى القدم ، وسخ الوجه والقفا ،
ثم وقف بجذاء دكان تببيع الشمال^(١) ، وجعل يحك ففاه بيده ، ثم
قبض على دابة ، فصعها بين ظفرى إبهامه . ثم انكفأ يريد الطوار
الثانى ، فقلت فى نفسى : لا بد أن يكون قد صدر قانون بتوقيع أشد
العقاب على من يقصع ال . . . على غير هذا الطوار !

(١) الشمال : جمع شملة ، بفتح الشين : ما يتلفع به ويقال لها فى المامية
« التليحة » .

بقى الحديث في راكبي الدراجات ، وأكثرهم ، كما ترى ، من الغلمان الحفاة . وهو ، ولا ريب ، حديث يطول . ولا يعود يحتمله هذا المقال ، بعد كل الذي مضى من الكلام . وبلغ القول فيهم أن الغلام الحافي من هؤلاء ما يكاد يحصل على « فرش تعريفه » يهيئ له استئجار دراجة ساعة أو بعض الساعة ، حتى يفرض أن شوارع القاهرة وجوادها وسياديتها ، وحواريها ، وأزقتها ، ومسالكها ودروبها ، قد أخلت له إخلاء كاملاً ، ونفض من فيها من الناس والدواب وسائر وسائل المواصلات نفصاً . فاذا لم يكن هذا متيسراً ، فلا أقل من أن يقف كل سائر ، ويتربص في مكانه كل عابر ، ويحمد كل متحرك ، حتى يجوز هو بسلام ، ما تكلف أن يدق جرساً ، أو يرفع بالتنبيه والانداز صوتاً !

ولقد ترى الحافي من هؤلاء راكبي الدراجات ، وقد اعترضته في سبيله سيارة من نوع « البويك » أو « الأستوديبك » ، أو « الدملر » بل « الرولر رويس » ، وهي تجرى في سرعة عظيمة ، إلا بسط إحدى ذراعيه إلى سائفها يشير إليه بالوقوف أو بالتمهل ، على الأقل حتى يجوز هو ، فله حق التقدم على كل حال بها ، وسنده رجله الحافية بلا نزاع ولا جدال !

وكثيراً ما يفسد هؤلاء الغلمان الأمر على السائقين ، ويوقعونهم في الحيرة والارتباك ، لقد نقضيان أحياناً إلى الأخطار الجسام . وبعد ، فاني أعود فأرغب إلى الله تعالى أن يخلصنا من هذه الآفان ، ويعلمنا ، بفضله ، كيف نحسن السعي في الطرقات . آمين .

الانتقام اللذيذ

لقد تعرف أن من أسماء الله الحسنى « المنتقم » ؛ ولكن إياك أن تظن أن انتقام الله تعالى كانتقام الخلق : أخذ بالثأر ، وإرضاء للحدق ، وشفاء لغلة الصدر ؛ فلقد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . بل إن المراد من الانتقام بالاضافة إليه ، جل مجده ، هو لازمه من التأديب ، وبسط العقاب المستحق ، وإطلاق العبرة البالغة . والانتقام قد يكون من الأناسي ، وقد يكون من الحيوان ، وقد يكون مما لا يعقل ولا يحس من سائر الأنشاء ؛ وأرجو ألا نعجل بالعجب ، فستعلم نبأ هذا بعد حين !

وأحب ، يا سبدي القارىء ، أن أؤكد لك أنني بحمد الله تعالى ، ما انطويت قط على حقد ، ولا بت قط على ضغن ، ولا سررتني قط مساءة إنسان ولا حيوان ؛ فلقد وفق الله بفضله ، صدرى من هذا الداء ، ونجاني ، برحمته ، من ذلك العناء .

على أنني ، ولا أكتكم ، أجد في بعض الانتقام ، وأعني انقام الله تعالى ، لذة وطرباً ؛ نعم ، لقد أحسن لبعض ألوان الانتقام لذة لا أكاد أحسها للفرج بعد الضيق ، ولين بعد الشدة ؛ بل لا أكاد أحسها وقد جلست في ساعة اطمئنان النفس وهدوء البال ،

للاستماع إلى غناء حلو يلقى ببارع النبر على عود حسان صناع .
إذاً فمن الانتقام ما بلذ ويطرب ، كما أن من الانتقام ما يروع
وبهول !

ولقد تقدمت إرادة الله ، في هذه الأحوال العالية المهولة ،
بانقامين بديعين لذيقين ، لا أخفيك أن نفسى قد أصابت منهما
قسطاً كبيراً من الراحة والمتاع .
أما أول هذين الانقامين البديعين فمن بعض الناس ، وأما
ثانيهما فمن بعض الأشياء . وإليك البيان .

١ - لقد جرت عادة الكثيرين من الموسرين وأنصاف الموسرين
من سكان القاهرة وغير القاهرة أن يقضوا أشهر الصيف في رمل
الاسكندرية ، كما جرت عادة أصحاب الدور في هذا الرمل ، ومن
في حكمهم من مستأجرى دورهم للمدد الطويلة ، أن يستتطوا في
الأجور ، ويبالغوا فيها مبالغة لم يكن يعبأ بها المصيفون بجانب استراحتهم
إلى الصيف ، واستمتاعهم وأولادهم بماء البحر وتنسم الهواء العليل ،
بعد ما عانوا في عامهم ، كبيرهم من كد السعى والعمل ، وصغيرهم
من كد الدرس والاستذكار ؛ فلا بأس مع هذا بأن ينفق المرء في كراء
البيت صغفى ما يستحقه ، ولا بأس بأن يشتري الخبز ، واللحم ، والسمك
والدبن ، والفاكهة ، والحبن ، والبصل الخ ، بأكثر مما بعلم أنه
جاره الاسكندري يشتري به بحجة أنه غريب « مصيف » بنبغى أن
يستغله التجار والباعة بعض الاستغلال !

بل لا بأس على ساكن القاهرة مثلاً إذا قال للفاكهاني الاسكندري

الانتقام اللذيذ

١٧٥

بكم الوقت من هذا التفاح ، وأرجوك أن نقرأها بكسر الواو ، وبإبدال القاف بالهمزة (على نطق أهل القاهرة) لا بأس على ساكن القاهرة إذا وجه إلى الفاكهاني في هذا السؤال ، فكان جوابه : « بعشرة جروش » . ثم يهبط اسكندري فيسأله : « بكم الوجبة » ؟ فيكون الجواب : « باربعتاشر جرش » يعني تعريفه « ، يعني سبعة قروش صاغ لا أكثر !

لا بأس بهذا كله ، فهو اسغلال رقيق محتمل على كل حال !
أما الذى به كل الناس ، والذى استحق من الله كل هذا الانتقام البديع اللذيذ ، فهو أن سلاك الدور فى الرمل ما كادوا يطمثون إلى أن أحداً من المصريين لا يستطيع قضاء الصيف هذا العام فى أوربا ، حتى أعلوا نأرجهم فى الأجر واستطاطهم فى الكراء إلى الحد المرهق المضنى ، فمن لم يطلب فى كراء داره أربعة أضعاف ما كان يقتضيه فى الأعوام السابقة ، اقتضى ثلاثة أضعاف ، أما أشدهم فناعة وزهداً فمن يرضى بالضعفين والنصف !

سكان القاهرة وغيرهم مضطرون ، هذا العام ، إلى اتخاذ المصايف المصرية ، لأنهم لا يستطيعون تحطيتها إلى البلاد الأجنبية ، ويالها من فرصة عظيمة تؤق الغنى ، ونجلب الوفرة العاجل ! أليس لنا البحر وشواطئه البديعة ؟ أليس الله قد ورنا نسيمه العليل ؟ فما لنا نبذله ، فى غير شئ ، لهؤلاء الفارين من حر الفاهره وغبر القاهرة ، وطالبي الاستجمام فى هذا الجو المريح بعد العناء والكد فى العام الأطول ؟ ما لنا لا نقترضهم عن راحة الموجة ، وهبة النسمة ،

ولو عصرناهم عصرآ ، وبعناهم النظرة إلى الأفق شبرآ فشبرآ ؟
هكذا شاءوا ، وعلى هذا جمعوا النيات والعزائم . وهكذا نسوا
دورة الفلك الدوار . ونسوا أنهم بقدرهم فتضحك الأقدار !

ولقد علمت أن المصريين جميعآ وأعنى مياسيرهم ومتوسطى الحال
منهم ، قد أمسكوا عن الشخصوص إلى الاسكندرية هذا العام ، نزولا
على أمر الحالة الحاضرة ، ودور الرسل المهيأة للتأجير خزيانة تنظر !
بل لقد علمت بعد هذا أن كثرة مالكيها ممن تضطربهم هذه الحالة
الحاضرة إلى الهجرة إلى الريف ، حيث يؤدون هم أجور السكن
كارهين مرغمين !

أرايت عدلا أحلى من هذا العدل ، وانتقامآ ألد من هذا
الانتقام ؟

٢ — هذا ما كان من أمر الانتقام ن بعض الناس . أما ما كان
من الانتقام من بعض الأنبياء فاليك الحديث : أنت ، ولا ريب ،
تعلم أن القاهرة هي أجمل المدن المصرية ، بل هي أجمل مدن العالم
كافة ، ولعلى لم أحسن التعبير من الواقع تمامآ ، فأى جو غير جو
القاهرة خائف بفر منه ، وينبغى لبس القناعات الواقية فيه
على الأقل ؟

وإذا كنت فى شك من هذا الكلام ، فارجع إلى شأن تسعة
وتسعين فى المائة ، أو تسعائة وتسعين فى الألف من موظفى الحكومة
فى الأقاليم تجدهم يصلون الليل بالنهار جادين جاهدين ، فى التماس
النقل إلى القاهرة . فمن لم يسع له أبوه عند كبار الحكام سعت له

الانتقام اللذيق

١٧٧

أمه عند نساها ؛ وهذا أم فلان تبكى حتى تستعبر بين ىدى زوج الحاكم أو بنته أو أخته ، فيرد عليها غربة ولدها المسكين الذى لا طاقة له بالغربة ، فلم يألفها فى حياته ولم يعرفها .

ولا تجد أحداً منا ، نحن الموظفين ، يعدم الحجة على طلب النقل إلى القاهرة ، فمن ليس له أولاد فى المدارس ، فان له ، بحمد الله ، أباً فى « الاستتالية » . ومن ليس له أم ضربها الفالج فان له أخوة تربى على العشرة وهكذا ! . . .

وأما النقل من القاهرة فمصيبة دونها عندنا ، نحن الموظفين ، جدد الأنف ، وفق العين ، وصلم الأذن ، وقطع اليد اليمنى التى نأكل بها ونشرب ونكتب ، وتتناول بها أهم الأسباب ، ونبسطهم لمصاحفة الأهل والصحاب ! . . .

وصدقنى إذا قلت لك إن هذه الغربة تبتدىء عندنا نحن معشر المصريين من قلوب إلى الاسكندرية شمالاً ، ومن الحبيزة إلى الدر جنوباً ، كلها غربة تستدعى الحسرة ، وتثير الزفرة ، وتبعث العبرة ، بل لا أكتفك إذا قلت لك إن بعض من نقلوا من الأرياف إلى شبرا مشلا استأنفوا السعى لينقلوا إلى دائرة قسم عابدين . . .

أصدقنى الآن فى أن كل جو غير جو القاهرة ، بل سره القاهرة ، خائف وجدير بالفرار ، أو لبس القناعات الوافية ، على الأقل ، كما ذكرت ؟

والآن ، أين الريف با عالم ؟ ومن لنا به ؟ وكيف السبيل ، واحسرتاه ، إليه ؟

الريف البديع هواؤه ، العذب ماؤه ، الجميل رواؤه ، من لنا به ؟
من لنا به ؟
أعوذ بالله ! ما أنكر وجه القاهرة ، وما أخبت مناخها ، وأوخم
هواءها ، وأعكر ماءها ، حتى نورها الكهربائي لقد أصبح ثقيلًا
يرمش له الجفن ، ويجهد النظر !
أرأيت كيف كانت حكمة الله الباهره ، وكيف انتقم للريف
المسكين من هذه القاهرة ؟

بين الصفارة والريف

مما يجري على ألسنة المصريين في دعاء بعضهم على بعض « رُوحُ
سَجَّتْكَ غارة ! » وكنا نحسب أن القدر كان يرد هذا الدعاء أولاً
فأولاً ، فلا يحل في موضع الاستجابة أبداً .

وها نحن أولاء نرى الآن أننا ، في هذا الحسبان ، كنا جد
مخطئين ، فأن القدر ، فأن القدر إنما كان يجمع هذه الدعوات ويحفظها ،
ولا يرد واحدة منها ، حتى إذا حل الوقت المقسوم ، استجاب دعوة
الجميع على الجميع !

كل يوم عواء صفارة ، ينذر بمقدم الغارة ؛ فعلينا ، ونحن نجني
ثمرات دعائنا بعضنا على بعض ، أن نثبت وننجلد ونصبر ، فإن الله
مع الصابرين .

وفي الحق إن صوت هذه الصفارات كرهه جداً ، وثقيل على
الأسماع جداً ، وضضع للأعصاب جداً ، حتى ليؤثر المرء وقوع
الغارة نفسها على هذا النذير ، في صوته المزعج النكير .

وقد لا يحق لنا أن نطمع في أن تسند الحكومة إلى حناجر هذه
الصفارات أوتار عود أو قانون ، أو أن تقيم في كل حي فرقة موسيقية ،
أو أن تطيف بالبلد ، كلما جاء النذير بمقدم الغارة ، كبار المغنيات

والغنيين ، يهيون بنا ، بأصواتهم العذبة ، على النبر الحلو والتغيم
البديع ، أن احذروا ، واتمسوا الخبايئ ، واطلبوا النجاة بقدر ما
تستطيعون !

ولكن ألا من سبيل إلى التخفيف من هذا النكر ، ولو بعض
الشيء ؟ أو الاستغناء عن هذه الصفارات ، والتعويض عنها بالكثير
ممن نسمع ، فى هذه السنين ، من مغنيات ومغنين ؟
وإذا زعمت أن من هؤلاء من هو أفسى حنجرة وأنكر صوتاً ،
فلا يذهب عنك أن آذاننا قد ألفت هذا الغناء من بضع سنين ،
ولا شك أن الالف والاعتیاد يلطفان كثيراً من موقع الأهوال الجسام !
بقى أن نراجع أنفسنا ، فى شئ من الصفاء والدعة ، وهما موفوران
فى عامة النهار ، والحمد لله ، نراجع أنفسنا ونسألها ، أمن الحق أن
صوت هذه الصفارات كربه بهذا القدر ، مزعج إلى هذا الحد ؟ أم أن
اقتترانه بتوقع الأحداث المزعجة ، هو الذى يخلع عليه هذا الوصف ،
ويحله من الأعصاب فى هذا المكان ؟

إن شئت الانصاف فى القول ، والعدل فى الحكم ، رأيت
لهذا التعليل نصيباً من الحقيقة غير يسير ؛ بدليل أنك لا تتجدد
للصوت المؤذن بانتهاء الغارة من الاستكراه والنبو على الآذن ،
وشدة شك الأعصاب ، ما تجده فى الآذان بتقدم الغارة ؛ إذ
الصفارة واحدة ، والحلق الذى ينطلق منه العواء واحد ! . . .
إذاً فلظروف والملايسات دخل فى الأمر كبير . ولو أن الصوت فى
الحالين نكير نكير نكير .

بين الصفارة والريف

١٨١

إذاً فلا مفر من الفرار ، ولا من صفارات الانذار ، وطلب السلامة
للاعصاب ، من كل هذه الأوصاب ، وأين ، لعمري ، يلتمس الفزع
والملاجأ الحصين ، إلا في ريف مصر الجميل الأمين ؟
وإذا كان أصحاب الأعمال في المدن لا يستطيعون أن يتركوا
أعمالهم ، فلا أقل من أن ينزح آباؤهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم ،
فلا تنالهم ، في الغالب ، الغارات ، ولا تؤذيهم النذر بالغارات ،
وبعض الشر أهون من بعض .
وكذلك أشخص من أحملهم من الأهل والولد إلى الريف ،
يتقدمهم ما يحتاجون إليه في عيشهم الجديد ، من التساع
والعتاد .

ويشاء الله الكريم ألا تضيق صدورهم بالوحدة ، ففي مكان
قريب أهل وأصهار وأولياء كرام . كما شاء تعالى ألا يستوحشوا ،
إذا جن الليل عليهم ، فالريف ينام من العشاء الأولى ، فأنسهم
بالراديو ، يغنيهم ، ويفاكهم ، ويحاضرهم ويسامرهم ، وينبئهم مختلف
الأنباء . فالقرية ، على دقة جرمها ، وقله سكانها ، تستصبح لحسن
الخط ، بالكهرباء ، يبعثها « وابلور » كبير أقامه المجلس القروى
هناك ، فالحمد لله الذى قرن ما أجرى من القضاء بلطفه ، وأردف
ما قدّر من البلاء بكرمه وعطفه ، وصدق المثل العامى القائل :
« قبل ما يبلى يدبر ! »

ولا بد لى من أن أراهم وأشهد مشواهم ، وأشركهم في عيشتهم
الطريف ولو حيناً بعد حين . وأتوكل على الله ، فأشد الرحال إليهم ،

لا بل أستقل من القاهرة القطار السريع . وبعد جرى غير طويل ،
أُنقلب إلى القطار البطيء . وسواء أكنت في هذا أم في هذا ، فلقد
كان شغل عيني وشغل نفسى طول الطريق ، هذه السيارات الكبيرة
والصغيرة التى تقل المهاجرين من المياسير وغير المياسير ، وسيارات
النقل الكبيرة تحمل أمتعة النازحين . بل عربات « الكارو » يجرها
جواد ، وقد يجرها حمار ، لا يعلم إلا الله مبلغ جهده في هذا السفر
الطويل الثقيل !

أما إذا كان هذا الحمار عاشقاً قد شفه الوجد ، وبراه طول القلى
والصد ، فقد أولاه المبيت في العراء خير ما يسعد العاشق المهجور
على بلواه ، ويرد من حرقة جواه ، بمناجاة النجم الساهر ، وشكوى
صد الحبيب الغادر . فاذا تعذرت عليه رؤية الحبيب وقد فلى ، فهو
ولا شك رائيه في صفحة البدر إذا نجلى . ولقد يحمل البدر رسالة الوله
والسوق إلى الأتانة ، والبدر خير من يبلغ الرسالة وبؤدى
الأمانة .

أليس في هذا بعض الفرحة من ذلك الضيق ، والتلطيف من
تلذيع سوط السائق طول الطريق ؟

وكيفما كانت الحال ، فلقد يستطيع الشاعر أن يشبه السكة
الزراعية بعقد ، وإن كان متلاحم الحبات ، فانه لم تنظمه يد جوهرى
صناع : فهذى لؤلؤة صغيرة ، إلى جانب خزفة كبيرة . وهذى حبة
من ذهب ، تليها أخرى من خشب ، وسبحان مقسم الحظوظ
والأرزاق !

بين الصفارة والريف

١٨٣

وكيفما كان الأمر ، فسرعان ما أحضرني هذا المشهد قول المتنبي ،
رحمة الله عليه :

وهجانٍ على هجانٍ تَوَاتَبَ لك عديدُ الحبوبِ في الأقوازِ
صفها السيرُ في العراءِ فجاءت فوقَ مثلِ الملاء مثلِ الطرازِ

حقاً ، لقد انتفضت القاهرة انتفاضة عنيفة ، فتطاير عنها أهلها
(تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض) وراحوا يطلبون المنوى
ذات اليمين وذات الشمال . ولعل بينهم من لم يتخيروا المأوى ،
ولعل منهم من لا يعرفون الوجه ، وإنما هم يهبمون هياناً حتى يأذن
الله لهم بالمستقر والمقام !

هذه ، ولا ريب ، حالة جد مؤلمة ، وخاصة إذا كان هؤلاء
النازحون ممن يجرّون بأيديهم غلمانهم ، أو يحملون على أكتافهم أطفالهم
الصفار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

على أنه بقليل من التسامح ، وبسير من التضحية ، يمكن إيواء
كل هؤلاء الفارين ، وإنالتهم المأمن ، وبمعونة المحتاج إلى المعونة منهم ،
(والناجى يأخذ بيد أخيه) .

هذه شدة عامة ينبغي أن تنظاهر على دفعها الأيدي عامة .
فمن كان في بيته سعة ، فلا خير عليه في أن بودى إليه من لا يجد
المأوى ، ومن كان في حالة فضل ، فلا بأس عليه إذا رزق من فضل
ماله بعض من لا يجد إلى الفوت سبيلاً . وإذا كان عدد هؤلاء كثيراً ،
فإن عدد سكان القرى ، واللاجئين من الموسرين ، أكثر كثيراً .

على أن ترك المعونة للمصادفات والحظوظ ، ليس من الحكمة في شيء . بل لا بد من الأعداد والتنظيم المحكم ، فلا يتعذر المشوى على لاجئ ، ولا يسرف الجوع على أحد من المهاجرين . نعم ، إن أهل الريف هذه السنين ، في بؤس ظاهر ، وفقيرين . على أنه لن يتكاد أعيانهم ومتوسطى الحال منهم أن يخرجوا لهؤلاء العائدين بالريف ما يمسك الربق ويعصم الحياة . فإذا بسطت الحكومة ولو يسيراً من المعونة لهم ، أينما كانوا ، فقد هان الخطب ، وكفيت البلاد الشرور الكبار .

وإذا كان لى ما أقترحه في هذا الباب ، فأننى أرى التعجيل بفرض ضريبة على تجار الريف ؛ لا يعفى منها كبارهم ولا صغارهم . على أن ما يجبى من ذلك يرصد لتلك المعونة . فتجار الريف أصبحوا يحنون من الريح ، بفضل النازحين من الموسرين وأنصاف الموسرين ، ما لم يكن يدخل منهم فى الحساب !

وبعد ، فلقد كنت أحب أن أتحدث عن الريف ، وهذين اليوسين اللذين قضيتهما فى الريف . ولكن لم يبق فى مساحة المقال متسع . فلنرجئه إلى مقال آخر ، إن شاء الله رب العالمين .

الأفندى

لا أحسب أن كلمة صارت من أعز العز إلى أهون الهوان كما صارت هذه الكلمة في مصطلح الزمان ! وقبل كل شئ لعك تعرف أن كلمة « أفندى » معناها السيد ، وهى من ألفاظ النشريف التى انحدرت إلينا عن سادتنا القدماء ، أعنى الأتراك . وعلى الرغم من أننا خلعنا عنا ، أو خلعت عنا السيادة التركية ، وعلى الرغم من أننا قد ظفروا باستقلالنا ، فإن أكثر ألقاب النشريف فى بلادنا ما برحت تركية ؛ « فأفندى » تركية ، و « بك » تركية ، و « باشا » تركية أيضاً !

وكل ما صنعنا فى هذا الباب ، عندما اختلطنا من سيادة تركيا ، أننا أصرنا ، فى توجيه الخطاب ، هذه الألقاب إلى النهج العربى ، أما جوهرها فباق كما هو ، تركى وابن تركى . فبدلاً من أنه كان يقال مثلاً : « عزتلىو أفندم » ، أصبح يقال : « صاحب العزة » ، وبدلاً من أنه كان يقال : « سعادتلىو أفندم حظرتلى » ، أصبح يقال : « حضرة صاحب السعادة » ، على أن تلحق الأولى بلقب « بك » ، والثانية بلقب « باشا » .

أما « أفندى » فلقد علمت أن معناها السيد ، وأما الميم التى

توصل بها أحياناً فهي أداة الاضافة للمتكلم ، « فأفندم » معناها « سيدى » . ولهذا كان ولى الأمر إذا وجه الخطاب إلى رئيس « النظار » ، أو إلى من يقوم مقامه ، فى المناسبات المختلفة ، لا يكتب مطلقاً : « دولتلو أفندم » ، أو « عطوفتلو أفندم » ، بل يكتب : « دولتلو باشا » ، أو « عطوفتلو باشا » ، لما تعلم من أنه أجل محلا من أن يدخل فى سيادة أحد على أى وجه من الوجوه .

ونعود إلى كلمة « أفندى » ، فنقول إن أصحابها الترك كانوا يضمنون بها أعظم الضن ، ويغلون قدرها أيما إغلاء ، وذلك على العكس من كلمة « بك » ، فان كل رجل هناك يكاد يكون « بك » ، وأرجو أن تنطق بالكاف ياء ، فذلك هو المنطق الصحيح . أما « أفندى » فكانت لقب ولى عهد المملكة العثمانية ، ووارث منصب الخلافة الاسلامية ، كما كانت لقب أعضاء البيت المالك هناك ، كذلك كانت لقب شيخ الاسلام .

ولما كان منصب قاضى القضاة فى مصر لا يتولاه إلا تركى ، بحكم السيادة العثمانية إلى سنة ١٩١٤ ، كان يقال له أو عنه « قاضى أفندى » ، وقد نضح العرف هذا اللقب على القضاة المصريين أيضاً ، وأعنى بالضرورة القضاة الشرعيين . على أن هذا اللقب ظل محصوراً فى دائرة هذا القضاء . ولا أدري أبقىته منه بقية إلى الآن ، أم عفى عليه فيما عفى هذا الزمان ؟

نعم ، لقد كان بدعى المخاطب فى درج الحديث « بك أفندى » ،

الأفندى

١٨٧

ولكن « أفندى » مطلقة لا تكون ، كما أسلفنا ، إلا لأمثال من ذكرنا من سادة السادات وأعظم العظماء .

أما فى مصر ، وأعنى فى العصر الذى شهدنا أطرافه ، فان لقب « أفندى » ، وإن لم يكن له هذا الخطر ولا بعضه ، فلقد كان له حظ من الاجلال غير يسير ، فهو فى الغالب الكثير لقب الموظف فى الحكومة ، وناهيك بالموظف الحكومى فى تلك الأيام ! لقد كان هذا « الأفندى » موضع إجلال أهل الحق وإعجابهم . وكان أكثرهم يعود من « الدبوان » وقد رشق قلمه البسط رشقاً أفتياً فى أعلى أذنه لينبى أذاناً للناس بما صرف من الأمر ، وما قضى فى حقوق الرعايا وأرزاقهم ، إذأ فانه يفضى فى دسائهم وأعناقهم . ولهذا كنت تراه يمشى متمهلاً متتايهاً ، ينلقى نظرات الاحترام والاعجاب .

ولم يكن حى من أحياء القاهرة تخلو رقاعه الكبيرة من بيت « ست أم الأفندى » ، وبيت « ست أم الأفندى » هذا كان شرعة الرائدات ، وسنابة القاصدات . إليه يحج نساء الحى ، وله يطلبن . لا يرحل الناس إلا نحو حجرته ، كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل وكان لسائر البيوت الصوى والمنار ، فاذا استخبرت سيدة عن أحد المنازل ، دلتها صاحبها عليه ببيت « ست أم الأفندى » ، فنقول لها مثلاً : اجعلى بيت « ست أم الأفندى » على يمينك ، ثم انعطى فى أول زقافى على يسارك وعدى من اليسار بيتين ، الثالث هو البيت الذى تطلبين .

ولقد كان هنالك أيضاً بيت « ست أم البك » على أن هذه البيوت

كانت نادرة جداً ، بحيث لا يقع في الحى كله إلا اثنان منها أو ثلاثة على الأكثر .

وكيفما كان الأمر ، فأنى أرجو ألا يميل بك الظن إلى أن « ست أم البك » كنيت بذلك لأن ابنها « البك » موظف في الحكومة كشأن « ست أم الأفندى » . العفو! العفو! وهل كان يبلغ الموظف مرتبة « البكوية » في الحكومة وأمه لا تزال على ظهر هذه الأرض ؟ يحسبه أن يسعى سعادته سعى الأحياء ، وإن ضربته السنون بماتى داء ! « فست أم البك » إذا لم تكن أم موظف ، ولكن كانت في الغالب مرضعاً لولد من أولاد الذوات ! ولكى تزداد علماً بموضع كلمة « أفندى » من جمهرة الشعب ، أذكر لك ما روى لى ، من أنه من نحو خمسين سنة ، أراد بعضهم أن بنشى فى حى الحسين ، رضى الله عنه ، « قهوة » فخمة عصرية (مودرن) ، تليق بمجالس الخاصة والمترفين من الناس ، فلم يجد أكرم ، ولا أعظم ، ولا أفخم من أن يدعوها ويكتب على جبينها بالخط الطويل العريض الجميل « قهوة أفندية » !

وبعد ، فذلك بعض العز الذى ناله لقب « أفندى » فى الزمان الطويل . أما الآن ، فكفاك الله شر الهوان ، وعصمك من الاستكانة بعد السلطان ، وحفظ مجدك من غدر الزمان !

أفندى ! وهل أصبح يطبقها موظف أو طالب أو فتى يعيش بفضل إرث ، أو شاب تجرى عليه وظيفة من وقف ؟ فإذا دعوت

الأفندى

١٨٩

أحدهم « بالأفندى » تجهم لك ، وانعقد ما بين عينيه ألماً وغضباً .
وربما ابتدرك من القول أو الإشارة بما يسوءك . فاذا هو قبلها منك
لسأنك ولوضعك ، فهو إنما يتجرع ولا يكاد يسيع !
لقد أضحى الجميع بتداعون بقلب « البك » ، صغارهم وكبارهم
في هذا بدرجة سواء ! ولا بأس بهذا وليكن شأننا فيه شأن إخواننا
الأتراك .

بقيت « الأفندى » التي ذلت في هذا العصر وهانت ولم يبق لها
من أمل تعيش عليه إلا في جماعات الحجاب والساعة في الدواوين ،
فهم الذين يرضونها ، ويطمثون بها ، ويستريحون إليها دون سائر
المطربين .

أستغفر الله ! فلقد نسيت عسكرى الدورية ، وهل يستطيع حوذى
من أى صنف ، أو بائع من هؤلاء المترفين بأبدانهم ، أو نحو هذين
من يرهبون سطوة جندي النوبة ، أو بدعوه بيا عسكرى ، أو يا جاويش
إنهم جميعاً ليدعونه « بيا أفندى » وكثيراً ما تكون هذه الدعوة
الحبيبة سبباً في الاغضاء ، أو التلطف في القضاء !

أرأيت كيف صحت العبارة العامية في هذه الكلمة : « يقطع
من هنا ويوصل من هنا ! »

ولا أرى ، قبل أن أختتم هذه الكلمة ، بداً من الإشارة إلى كلمة
أخرى ، بعثها السعد من الأرض وعلا بها على السحاب ؛ فأضحت
لأجل أصحاب المناصب أجل الألقاب .

لا أدري إن كنت ندري أو لا تدري أن ألقاب التشريف كانت
تجرى صعداً على النحو الآتي : حميتلو « بتتديد الياء » . وهذه لأصغر
طبقات الموظفين . فرفعتلو ، فعزتلو ، فسعادتلو ، فعطوفتلو ، فدولتلو .
وترجمتها على الولاء : صاحب الحمية ، صاحب الرفعة ، صاحب
العزة . . . الخ .

فترى أن هذه الرفعة قد طارت من هذا المكان ، وحلقت حتى
أمست أعظم تشريف لرئيس الحكومة ولرئيس الديوان !
آمنت أن من الألقاب ما يهبط ومنها ما يصعد ، ومنها ما يشقى
ومنها ما يسعد ، (وكذلك الدهر حالا بعد حال) . والله الأمر من
قبل ومن بعد .

في الضمير العام

يعتريك البياح من هؤلاء البياعين المضطربين في الطرق بسلعهم فيطرحها لنظرك ، وقد تجيلها يده بين ذقنك وفخذك إن كنت جالساً حتى يحك بالوعاء : صندوقاً أو عدلاً أو سلة ، صدرك . وقد تنازعك نفسك إلى أن تشتري ، فتسأله الثمن ، فتراه يحلف لك مبتدئاً مرتجلاً ، متبرعاً محنسباً ، ولم تكن قد باديته بشك في قوله أو جرح في ذمته . يحلف لك بكل مؤثمة من الأيمان أنه إنما اشترى بعشرة قروش ، ولا يطمع في أكثر من قرش واحد أو نصفه ربما لا يقوم بشئ من طول سعيه وكده ؛ وإنه لا يتحرج من أن يدخل في يمينه الطلاق ، وفقد الولد ، وذهاب البصر ، وبطلان الشق بضربة الفالج . . . ! وتعرض عليه ثلاثة قروش مثلاً أو ما دونها ، فيتأبى ويتعذر ، وقد يتركك ويمضي مهرولاً مفزاً ، ليدخل في وهمك أنه لم يكن غالياً في عرضه ولا متأرباً ، فان راجعته وإلا ظل في هرولته حتى يغيب عن نظرك ؛ ثم لا يلبث أن ينقلب إليك ، فيحط الثمن إلى ثمانية ، فإلى ستة ، وهكذا لا يزال يتدلى حتى يصل إلى ما عرضت عليه أول الأمر . وكذلك تعقد الصفقة في سراح ورواح !

إن ما يستدعى البحث حقاً ، بل إن ما يثير الفرع حقاً ، أن

يحاول هذا الرجل أن يغشك ثم لا يلبث أن تنكشف محاولته وأن يحلف بكل ما يحلف به ، وسرعان ما يظهر كذبه وبينه وحشه . ومع هذا وهذا لا يبض جبينه بقطرة واحدة من خجل أو حياء ؛ بل إنه ليقاومك في ألوان من الحديث كأن لم يحمل وزراً ولم يقترب إثمًا ، ولم يأت أى شئ وما يعاب به الناس !

وإن مما يستدعى العجب الأعجب ، بل إن مما يثير الفزع الأفرع أن أكثر الناس ، حتى المتعلمين المثقفين منهم ، لا ينكرون هذا على أولئك الباعة ولا يزعرونهم ، ولا يظهرون الاشمئزاز منهم ، ولا يهنونهم عن العودة لمثله !

وإن اطراد ذلك من جمهرة الباعة ، واطراد هذا من جمهرة المشترين ، ليعت على الحكم ، مع الخجل الشديد ، بأن الغش ، والكذب ، والحنث بأغلظ الأيمان ، هو من العرف المعروف في هذه البلاد .

ومن الحق الذى لا يعتريه شك ، الحق المؤلم الموجه ، أن هذه الطبقة الدنيا في بلادنا ، على وجه عام ، لا تشعر ألبتة بشئ يدعى الضمير ؛ يغشك البائع في السلعة ، وإذا استطاع طفف الكيل أو أخسر الميزان . ثم تراه يكذب في القول ، ويحنث في اليمين ، ما يجيد لشئ ومن ذلك ألبتة ، ولا يحس له خجلا ولا ندمًا ، إنه لا يحس شيئاً من ذلك ألبتة ، بل إن نجاحه في غشه وزيفه واسنراحة الناس إلى كواذب أيمانه لما يبعث فيه عجباً وأريحية . حتى إذا خلا إلى أمثاله وأكفائه ، جعل يباهى بذلك ويكاثر كما يتبارون

في الضمير العام

١٥٣

هم أيضاً في التباهي والتكائر بما وقع لكل منهم من مثله ! هذا هو الخطر الأعظم ، يجرم المجرم ولا يرى أنه أقى شيئاً ، ولو قد شعر ، حتى أضعف الشعور ، بأن في الجرم إثماً ، وأنه أمر مكروه لا يليق بالإنسان أن يقارفه ، فانه ولا ريب مما ييسر السبل إلى إصلاح هذه النفوس ، فان بعث الضمائر من الوقود أهون على الداعين من خلقها من العدم . قلت إن غش الباعة وحنثهم بأغلظ الأيمان هو من العرف المعروف في هذه البلاد ، وأذكر أن من قرابة ثلاثين سنة ، إذا كان موسم الخيار وأقبل الليل ، صف باعته عرباتهم بجوار مسجد السيدة زينب رضى الله عنها . وعلى كل منها مصباح كبير ، وجعل كل منهم يصيح ملء لسانه بسماع مأمور القسم ومن قبله من رجال الشحنة : « بالخلال خمسة وبالحرام ستة ، يا جمع العصارى يا لويبة » . ولقد رأيت هذا بعيني وسمعته بأذني ، وإنما خصصت هذا المكان لأن حى السيدة هو الحى الذى نشأت فيه ، ولا بد أن الأمر كان كذلك في سائر الأحياء .

بالخلال خمسة وبالحرام ستة ! ولست بحاجة إلى أن أبين أن المراد بالحرام الوزن الناقص . ومعنى هذا أن إفساد الميزان مما يجوز أن يقع عليه التعاقد بين البائعين والمشتريين ! وأحسب أن هذا ما لا يقع له شبهة في أى بلد آخر من بلاد الله . وأغلب الظن أن إمساك الباعة الآن عن عرض التصافق على الحرام إنما مرجعه إلى خوف العقوبة القانونية التى تغلظ عليهم هذه السنين في النقص من الموازين .

ولقد أبرزت في هذا الحديث جماعات البياعين ، لأنهم يطالعون الناس في كل ساعة ويعترضونهم بكل سبيل ، على أننا لو بسطنا في آفاق النظر لراعنا أن نرى ما نرى من أكثر جماعات الصناع ومن يعالجون ألوان الحرف في هذه البلاد ؛ أما خلف المواعيد فهذا قدر مشترك بين الجميع .

وأما استبدال مادة رديئة بأخرى جيدة (وهى المتفق عليها في عقد الصفقة) ، وأما قلة العناية بتجويد صنعة ، وعدم التأنيق فيها طوعاً لمطالب الفن ، فهذه الخلل يقع فيها الاختلاف بين جماعات الصانعين .

وهذا الاختلاف يرجع في الغالب إلى يقظة المستصنع من جهة ، وإلى كفاية القائم على شأن الصناع ومبلغ حرصه على السمعة من جهة أخرى . أما الضمير ، الضمير وحده فلا غرو عليك إذا أسقطته من الحساب !

وبعد ، فإن العلة الحقيقية لمعظم ما نشكو من التدهور الخلقى هى شيوع الكذب ، وإن شئت الدقة قلت هى أننا ، على الجملة ، لا تنزل الكذب المنزلة الحقيقية به من الأفكار والاستفطاع ، ولا نحتمل للنهى عنه ، فضلاً عن المبادرة بالعقوبة عليه .

وشيوع الكذب ، مع الأسف العظيم ، ليس مقصوراً على الطبقة الدنيا من الناس ، بل لقد عدا على الكثير ممن أخذوا بحظ من العلم والتهذيب ، حتى لقد ترى الرجل أو الفتى يكذب في غير حاجة ملجئة

إلى الكذب ، أو لدفع ما إن دفعه بالصدق والصرحة لم يمسسه من غوائله شر كبير ولا صغير ! ولو أننا ننزل الكذب منزلته التي مهدتها له قواعد الأخلاق ما أسفناه في هذا اليسر العظيم !

وأثر الكذب وعدم الاكتراث بالأقدام عليه يختلف باختلاف الناس ، وحظ كل منهم من التربية والتفكير والنظر إلى عواقب الأمور . ولهذا تراه في بعضهم يسهل ارتكاب أفعع الجرائم إذ هو لا يعدو في سواها إلا على التافه من المخالفة لقواعد الأخلاق ، وبين هذين الحدين مراتب تتفاوت طوعاً لتلك الخلال في الناس .

البيئة عندنا لا تحارب الكذب ، بل لا تكاد تنكره . وإني لأكره أن أقول إن كثيرين من الآباء والأمهات في بلادنا يحملون الولد عليه ، وقد يضطرونهم إليه .

وإذا قدرت أن قوام عيش الجماعات هو الثقة ، فانظر كيف يعيش معشر لا ثقة لأحد فيهم بأحد ، لأنهم بين كاذب ومكذب لا يركن من صاحبه إلا على حذر وارتياب !

فالنجدة ، النجدة ! يا معشر القائمين على تربية النشء وعلى حراسة الأخلاق .

فن الاعلان

وهل بقى من لا يؤمن بأن الاعلان أصبح فناً له كسائر الفنون ، قواعد وأصول ؟ بلى ! هو فن له أنزله خطر ، يتدارسه طلابه ويستذكرون مسأله وفضايه ، ويراجعون الأساتيد فى ما بتدبرهم عليهم من تلك المسائل ، ويتبارون فى حذقه وتجويده ، حتى يبلغ بعضهم فيه رتبة العبقرية والنبوغ .

وما لفن الاعلان لا يكون له هذا الشأن وأجل من هذا الشأن ، وهو الوسيلة الفذة إلى تحريك التجارات ونفاق الأسواق ، وإيثار الفتى ، وذهاب الصيت فى كل مكان . بل لقد يكون إحسان الاعلان أهم الداعيات إلى سيل جماعات الدول إلى دولة ، وصفوفلوب الأمم إلى أمة ، واضطغائها على عدوها بهما بكن خطبه . ومن شأن هذا العطف وهذا البغض أن يبعث على الامداد بألوان المعونة المادبة من جهة ، والسكبد بالمنع والمضارة من الجهة الأخرى ، مما يسعد على النصر ، ويعجل للخصم الغلب والقهر .

وروى أن سائلا سأل المثرى العظيم المستر فورد صاحب مصانع السيارات المعروفة باسمه : لو تجردت من الغنى ؛ ولم يبق فى يدك إلا ألف جنيهه ، فما عسى أن نصنع ؟ فقال : أخرج منها أولاً

سبعائة وخمسين للاعلان ، وأستأنف السعى فى الحياة الباقى !
ولقد أدركت مصر حظ فن الاعلان وأثره البعيد فى الطالب
الخاصة والعامة ، ففعل سكانها ، أو من يعنهم الأمر من سكانها ،
ينبارون فى تجويد الاعلان ومد رواحه ، وبسط آفاقه ، حتى بذوا
الأمر بكان ، وكانوا مضرب المثل فى هذا الشأن !

وأرجو ألا تتعاضلك هذه الدعوى ، فتعجل بالحكم علىّ بالتزويد
أو الغلو ، فسأفهم لك الدليل ، إن شاء الله !

ولنمض أولاً فيما كنا فيه من أنر الاعلان ، سواء فى استخراج
الأسوال ، أو فى استدراج العواطف بشتى الأساليب . ولقد تكون
ماضياً فى طرفك ، ما بك أن تشتري أى شئ ، فيمبل بصرك إلى
معرض من معارض بعض الدكاكين (الفترينات) ، فيستهوبك
بعض السلع المعروضة بجمال شكلها ، بل بجمال وضعها ، فى بعض
الأحيان ، فتتقدم لابتاعها ، سهما يبحشمك الثن . وهذا كما أسلفنا
من أثر جودة الاعلان .

ولست بحاجة إلى من يقول لك إن جميع مدن المملكة المصرية ،
لا فرق دين كبيرها وصغيرها ، دانيها وقاصيها ، أصبحت تزخر بفنون
الاعلان . فهذه الصحف السيارة ، والمجلات الدورية وغير الدورية ،
نسبل أنهارها بالاعلان . وهذه جدران المباني العامة والخاصة لا يكاد
يعرى متر مربع فيها من الاعلان ، بين مطبوع على الأوراق ،
أو مكتوب على الحائط ، أو متألق فى أعلى المباني بنور الكهرباء .
دع آلاف الاعلان التى يلناك بها الموزعون فى كل سبيلها . والاعلانات

فن الاعلان

١٩٩

الصوتية (الميكرفون) التي تجول بها السيارات في الطرق والأسواق الخ... ومن أطرف ما يذكر في هذا المقام أن للحكومة معهداً كبيراً ، يقع على شارع من الشوارع الرئيسية في قلب القاهرة ، وصور هذا المعهد يمتد إلى مسافة كبيرة من جانب الشارع . وقد بدا للقائمين على تكليسه (بياضه) أن يبالحوا في تزيينه وتهيج به ، بتقسيمه إلى مربعات متساوية المساحة . ولم يمتض على هذا الزين والتهيج بضعة أسابيع ، بل بضعة أيام ، حتى كانت جميع هذه المربعات محلاة بالاعلانات المختلفة ، ما خلا مربعاً واحداً لا أدري لماذا ترك المسكين عريان ، لا أنر للنفس ولا للكتابة فيه !

فهناك المهلك ، والمبهد ، والبظ ، وورنبش العمده ، وطربوش النسرخ... وس العجيب أنها كلها مكتوبة بالحبر الأسود وبأردأ الخطوط ، حتى يخيل إليك أنها منضوحة بوعاء الحبر نضحاً لم تجر بها أنامل ، أستعفر الله ، بل أكف الكاتبين !

وطال الزمن على هذا نم طال . وأخيراً يظهر أن القائمين على شأن هذا المعهد الحكومي قد عز عليهم أن بنى ذلك المربع فذاً بين سائر المربعات ، فاستخاروا الله وكتبوا فيه : «ممنوع لصق الاعلانات» .

ولقد زعمت لك أن مصر قد برعت أمريكا ، فضلاً عن أوروبا ، في فن الاعلان ، واستنظرتك الدليل . فهاكه الآن .

لعلك تعرف ، ولعلك لا تعرف أن الأطباء لا يعلنون عن شأنهم بأية وسيلة من الوسائل في بعض البلاد الأوروبية . ولا شك في أن

هذا من الجهل بفن الاعلان الناشئ عن الجهل بفوائد الاعلان ،
فاذا أحلت الأمر على أن القانون في تلك البلاد يحظر الاعلان على
الأطباء ، فما كان عسبراً عليهم ، لو أرادوا ، السعى إلى إلغاء هذا
القانون ، ليفيدوا ، ما شاء الله ، من طيبات الاعلان .

أما عندنا ففوق إعلانات الأطباء والمحامين في الصحف السائرة
وغير السائرة ، فلقد ترى « اليافطة » الطويلة العريضة مرفوعة على
ساريتين تطاولان السحاب ، وهذه على جانب الشارع الرئبسي ،
ثم أخرى على مدخل الشارع الفرعى ، ثم ثالثة على ناصية المنعطف ،
ثم رابعة على صدغ العبارة ، وكلما انعطفت بك السلم رفعت لبصرك
« يافطة » ، وهكذا حتى تبلغ باب العبادة أو المكتب ، فاذا هو
مرصع بجمهرة من « اليافطات » المختلفة الأشكال والخطوط والأحجام .
ولا يبعد أن يتقدم فن الاعلان في بلادنا حتى يخترع شباكا
سحرية تصطاد الزبائن ، وتسحبهم في لطف ودعة ، حتى تصل بهم
إلى العبادة أو المكتب في أمان ، وما شاء الله كان !

وأبدع من هذا وأبرع ، أن يعلن الطبيب أنه إذا لم يكشف
من المرض في ٤٨ ساعة فقط ، فانه يرد إلى العليل ما دفع من النقود .
أرايت سئلا أبلغ من ذلك في الكفاية ، والثقة بالنفس ، والتمكن
من الفن ، والقدرة المنيقنة على شفاء العليل ، مهما تعاصت في
٤٨ ساعة لا تزيد ولو دقيقة واحدة من الزمان ؟

ولولا فخل الاعلان ما تسنى للذين ضربتهم العليل ، وقست
عليهم الأسقام ، وألحت الأوجاع والآلام ، أن يبرأوا عن علمهم ،

فن الاعلان

٢٠١

ويتخلصوا من آلامهم وأوجاعهم في مثل هذا الزمن اليسير ، والشفاء مكفول ، وإلا فالل مال مردود ، وموفى غير منقوص .

ومن الآيات التي تشهد لمصر بالبراعة والفوقان ، في فن الاعلان ، أنك ترى صاحب مصنع الأثاث مثلاً ، يحلو صورته هو بدل أن يحلو عليك صورة كرسي ، أو سرير ، أو ثريا ، أو صندوق ، أو منضد « تراييزة » ، فإن الانسان ، من غير شك ، أكرم وأشرف من كل ما على وجه الأرض من صنع الانسان . ثم أنه ، من غير شك أيضاً ، أحسن خلقاً وأجمل شكلاً من كل ما أخرجت مصانع الشرق والغرب ، من فاخر السرر والكراسي والصناديق والثريات والألنضاد . أليس قد قال الله تعالى في كتابه الكريم : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » (١) ، صدق الله العظيم .

أما التبريز في العبقریات ، وإصابة غاية الغايات ، ففي التفات صاحب المطعم عن أن يصور في إعلانه عن طعامه حملاً مشوياً ، أو أرنباً برياً ، أو ديكاً رومياً ، أو سمكا طرياً ، أو « طاجناً » فرنياً ، أو ثمرأً جنياً ، أو كعكاً شهياً ، أو نحو ذلك مما يزعمون أنه يبعث الشهوة إلى الطعام ، ويحفز المعدة للازدراء والالتقام . بل تراه يلتفت في إعلانه عن هذا الكلام الفارغ ، ويصور شخصه هو وعلى ثغره ابتسامة أحلى وأشهى من كل ما أنضجت الأفران من حلوى وسمك ولحمان ، ومن كل ما حملت الأغصان من فاكهة ونخل ورمان ! أصدقت ، بعد هذا ، أننا قد بذدنا الأمريكان في فن الاعلان ؟

التأمين على الموت

وسياًخذك العجب حين يقع بصرك على هذا العنوان ، وستوجه الأمر على الخطأ ، فتظن أنني أردت أن أقول : « التأمين على الحياة » فقلت : « التأمين على الموت » ، فبين الحياة والموت تضاد ، والتضاد من أقوى العلاقات . وقد يتبادر إليك الظن بأنني أعبت أو أمزح بقلب المعنى ، والدلالة بالنقيض على النقيض !

وإنني أؤكد لك ، يا سيدي القاري ، أنني لم تلاحظني خطأ ، ولم يزلني غلط ؛ فقد تحريت هذا القول تحريماً ، وتعمدته تعمداً . وأؤكد لك ثانياً أنني لا أفصد إلى عبث ولا إلى مزاح ، فالأمر أجل من ذلك وأعظم . وستعلمن نبأه بعد حين !

فاذا استشرقت نفسك إلى علالة تبيل بها الصدا ، أو لمحجة (تصيرة) تشد بها المتن حتى يأتى الوقت المقسوم للبيان ، فلا بأس على بذاك ، إذ فاعلم ، علمك الله الخير وحجب عنك المكروه ، أنه لن يطوى من الزمن طويل حتى تقوم في مصر شركات « للتأمين على الموت » بجانب شركات « التأمين على الحياة » !

ولأول مرة تسبق مصر العالم جميعاً في ابتكار هذا اللون من النظم المالية ، بل إنها ستتأثر بهذا النظام دون العالم جميعاً !

وبعد ، فلقد تعلم أن فى مصر أزمة زواج تشتد عاماً بعد عام ؛ وهذه الأزمة تنحصر فى المدن ، لم تطرق القرى والحمد لله ! ولقد زعمت فى بعض مقامات الكلام (لا أدرى أى الراديو أم فى بعض الصحف أم فيهما كليهما) زعمت أن هذه الأزمة ترجع إلى أسباب عدة ، أهمها ما أصبحت تقتضى حياة الزوجية ، فى هذا العصر ، من جليل النفقات .

كانت البنت من أوساط الناس إذا تزوجت لا تكاد تجشم الزوج أو أوليائه شيئاً ، فطعامها من طعام أهل الدار ، وكسوتها إزاران ورداءان فى العام ، وما حاجتها إلى حذاء وهى حِلْس خدرها طوال الأيام ؟ إذآ فى الكوث (الشبشب) على رأى أستاذنا العلامة الشيخ مهدى خليل ؛ إذآ فى الكوث والقباب غنى وكفاية .

ثم إنها توفر على الأحماء أجور الخدم وسائر تكاليفهم بما تقوم به من العجن والخبز ، والطهى ، وغسل الثياب ، وكنس الأرض ، ونفض الأثاث ، وتقديم القهوة للزائرات ، وصنعها للزائرين ، وخدمة الطفل الصغار الخ . . .

والآن لا تحسن البنت الحضرية شيئاً من هذا ، وقد لا تعرفه ، وإن عرفته وأحسنته لا ترضى بأن نعالجه أنفة وحفظاً للكرامة ، ودعنا من الأنفة والكرامة ، وحدثنى بعيشك ، متى تضطلع البنت أو الزوجة الحضرية بهذا أو ببعضه ، ولا بد لها كل يوم من غشيان السيña وغيرها من دور التسلية والترويح ؟ ولا بد لمن يسهر الليل

التأمين على الموت

من أن ينام صدىً من النهار . ولقد يتصرم سائرته في الاختلاف إلى الحياطة ، ومتاجر الثياب والزينة ، وزياره الأصدقاء والأتراب ، والفرج في المنزهات في صحبة الزواج أو بعض ذوى الأرحام ، واستقبال الضيفان . وناهيك بما يسنهك من الوقت ، بعض النهار ومهبط الليل ، في التجميل والتزين ، وتصفيف الشعر طوعاً لآخر بدع (مودة) ، سواء جرى ذلك في البيت أو في دكان الحلاق . ولا بد أن يكون لقراءة الروايات من مساحة اليوم حظ غير قليل . ثم إن هذا وهذا ولقد ضاعف نفقات الزوجية أضعافاً كثيرة ، فليسينا وسواها من دور السلية أجر ، ولزكوب في الغدو والرواح أجر ، ولتنظيم شعر الرأس coiffure أجر . ولا تنس تنذيب أصابع اليدين وصبغهما manucure ، فذلك كذلك أجر . وإياك أن تسقط من الموازنة بين نفقات المعيشة اليوم ونفقاتها بالأمس ، إن تلك المكدورة في الدار طوال الأيام في غير حاجة إلى الاستكنار من الثياب ولا تعديد الألوان ولا الاعلاء في الأثمان . أما سيده اليوم وفتاته ، فان موجبات الأناقة ، أو على التعبير العامي الشائع « الشياكة » لنقتضيها ألا تختلف عليها الأنظار وهي في ثوب واحد ، بل لو استطاعت لاتحدت كل يوم من الثياب والأحذية جديداً ، ولبست مستحدثاً طريفاً ، بل إن من السيدات لمن تأنف أن تضع عليها من الثياب في الليل ما وضعت بالنهار . والحاصل أنك إذا جمعت هذه النفقات الهائلة إلى الخسارة المالية الناشئة عن هجر السيدات للقيام بتدبير المنزل ، ونفورهن من الاضطلاع

بشئون البيت — تجلى لك وجه العذر فى إعراض الشبان عن الزواج فى هذه الأيام . وكفى لهم بالمال الذى يكفى هذه النفقات الجسام ، فوفى ما تجشمهم تكاليف السكن ونفقات الطعام ؟

نعم ، لقد أعرضت عن الزواج كثرة الشبان الذين يحرون على عرق من التشقيف والتهديب ، لأن عائداتهم — أو مواردهم بالتعبير الحديث — لا تفى بحاجاتهم الكثار الثقيل فى هذا الزمان . فإذا فكر أحدهم فى تحصين نصف دبنه اقترن هذا التفكير بالتمسك الزوج ذات المال ، لتعينه بما لها على شأنه ، وتضع عنه بعض حمله ، فإذا لم يكن لها مال حاضر فحسبه غنى الأب أو الأم وإنهما إذا لم يعينا فى الحاضر ، ففى ميراث أحدهما أو كليهما عزاء وشدة للمتن ، وعون على موالاة السير فى طريق هذه الحياة .

وإننى أعرف أن كثيرين من الشبان لم تطلب نفوسهم بتوثيق عقدة الزواج إلا بعد أن أخرج لهم الأحماء حجج أسلاكهم ، إن أطياناً زراعية ، وإن أبنية فائمه ، فاطمأنوا إلى صحتها واستيفائها لشروط عقود الملكية . وربما مضى أحدهم فى سر من أولياء الفتاة إلى المحكمة المختلطة ، فاستخرج الشهادات العقارية الدالة على خلو الأعيان من كل رهن أو اختصاص أو امتياز ، حتى يقبل مطمئن الضمير على الزواج .

ولكن ! . . . آه ولكن ! . . . ولكن من ذا الذى يضمن أن تقصر آجال هؤلاء الأصحاء ، لنحق التعزية ويعجل المقدور بالرجاء ؟

التأمين على الموت

٢٠٧

وما يدرّبنا لعل أعمارهم تطول ونطول ، حتى يقيموا هم المناحات على البنات وأبناء البنات ؟

إذاً فينبغي أن يُضاف إلى الاطمئنان على صحة عقود الملكية الاطمئنان إلى أن الرجل قد أسن وهرم ، وتزاحفت عليه العلل من كل جانب . ليضمن العريس أن أيام حميه في الدنيا غير محدودة ، وأن خطاه إلى الضريح أصبحت إن شاء الله معدودة !

وإني لأعرف رجلاً واسع الغنى ، ذا وقار ودين ، له بنت أوفت على غاية من الجمال والرشاقة وحسن الأدب . وقد أخذت بحظ من علوم العصر وفن تدبير المنزل . وأسرة ، هذا الرجل على استنارتها وقوة ثقافتها ، ما برحت تحافظ على جميع التقاليد التي تحرص عليها كل أسرة تشعر بالكرامة والاحترام في هذه البلاد .

ويتقدم شاب موظف في الحكومة لخطبة الفتاة ، وترضى الأم ، في سرّ من بعلمها ، باخراج أسانيد الملكية للخاطب ، وأنت خبير بلهفة الأمهات على تزويج البنات . وبعد إجراء اللازم من فحص هذه المستندات ومراجعة دفاتر المحكمة المختلطة ، والاطمئنان إلى أن الأعيان نظيفة لم يعلق بها شيء من الحقوق وحينئذ صرف عنان السعي إلى تفقد صحة هبة العزيز .

وأول ما بدا له من هذا أن يجعل لاحدى خدم الدار جعلاً على أن تريه مناديل البك التي في طريقها إلى الغسل . فتظاهرت الخادم بالرضا ، وواعدته زماناً ومكاناً ، وسضت من فورها إلى سيدتها فأخبرتها الخبر . فأشارت إليها أن افعلى ، وحذرتها بطالعة سيدها بذلك .

وما أشد خيبة المسكين ، إذ يبسط المناديل كلها ظهراً وبطناً ،
ويجد النظر فى خيوطها خيطاً فيخيطاً ، حتى يكاد من شدة التحديق
ينفض نسجها نقضاً ، فلا يرى فى أيها أثر الدم من نفثة صدر . ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وما له يأس ؟ وما له يقنط ؟ أفكتب على الناس ألا يموتوا إلا
بذات الصدر ؟ وإذا كان السل معجلاً للأجال ، فلا شك فى أن
السكر والزلال من حبائل عزرائيل .

وهنا تقوم مشكلة . فان أخذ النماذج (العينات) من بول الرجل
لتحليلها يقتضى ولا بد علمه ورضاه فليس للأبوال شأن المناديل .
إذا لم يبق إلا إتخاذ الصراحة . ولا شك أن كل زواج لا تقوم وسائله
على الصراحة لا خير فيه . بل قل أن يكفل له بقاء . وما كاد
الرجل يسأل فى هذا حتى ثار ثائره ، وجن جنونه . وهم بالبطش
بالرسول ، لولا أن أسعفته ساقاه بالفرار . وأرسل البك فى دعوة ابن
أخيه غير المتعلم ، وعقد له على بنته لساعته .

وبعد ، فليس كل الناس بقادر على أن يرغم ابنته على الزواج
من قريبه ، واقعاً شأنه فى الحياة ومن هوى الفتاة حيث وقع ،
ولبس كل الناس بقادر ، إذا طاب له ، على أن يعضل ابنته حتى
تستبخ وتعنس . وليست الآجال بأيدي الخلق ، حتى بعجل الآباء
الموسرون بأجالهم ، ليتقدم لبناتهم الخاطبون من شباب هذا الزمان .
إذا لم يبق إلا حل واحد لهذه المشكلة الاجتماعية التى تعانيها

مصر في هذه السنين . حل واحد يستدرج الشبان للزواج ، ولا بأس به على البنات ولا على آباء البنات . بل إنه فوق هذا وهذا ليفسخ في النظام الاقتصادي وبضيق من مساحة العطلة في البلاد . وهذا الحل الفذ الذي لا حل قبله ولا بعده ، هو أن تؤسس في مصر شركة أو شركات للتأمين على الموت تقوم بجانب شركات التأمين على الحياة . وهذه شركات التأمين على الموت ، وقاك الله الهليات ، وعصمك من خطبة الشباب للبنيات ، تجرى في معاملاتها على عكس ما تجرى عليه شركات التأمين على الحياة ، وإليك البيان . يؤمن الشاب الخاطب على موت حميه المؤسر أو حماته المؤسرة بمبلغ معين ، يؤدبه هو للشركة إذا حم الفضة ، وحل إرث الأحياء . وذلك لقاء قسط شهري أو سنوي معين ، تؤديه الشركة للشباب المؤمن . وهذا القسط يقل ويكثر طوعاً لمبلغ التأمين من جهة ، وصحة الحم العزيز أو الحياه المحبوبة من جهة أخرى . وبهذا النظام يكفل اليسر العاجل للشباب ، والمغنم الآجل للشركة . في حين لا يوتر المرحوم أو المرحومة في زيف ولا صحيح ، اللهم إلا وهسو ملحود في الضريح . وإن من قد دس في التراب ، لفي شغل بحساب غير هذا الحساب !

ولعلك قد وفقت على هذا النظام المالى البديع ، في غير حاجة إلى من يزعم أن أحسن « زبائن » الشركة وأولاهم بالأغلاء في الأقساط وأجورهم بعدم المبالغة في مقدار التأمين ، هم الذين شاعت فيهم الأسقام وألحت عليهم العلل ، ومن خنقهم الذبحة

أو أبطلهم الشلل . فإذا كان فى البول سكر أو زلال فقد تراءت
المنى وتدانت الآمال . وإذا كان مع السكر أستون acetone فالخط
مكفول مضمون . وإذا كان فى الزلال سلندر cylindre ، فذلك
السعد الذى لا يقدر . إذاً فقد حق البسر والبسط ، وهبط التأمين
وارتفع القسط . والله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولو من طريق
العلل والأسقام والأوصاب !

فليهنل إلى الله من شاء من ذوى اليسار ، أن ينعم عليه بالعلل
التي تقصف الأعمار ، حتى يفرح بالأكفاء الظرفاء من الأصهار ، دون
أن يوتر من درهم ولا دينار ، فاللهم قنا الغنى فى الدنيا وقنا فى
الآخرة عذاب النار .

شركة تنشيف الريق

أكثر الصنف في هذه الأيام من ذكر مقابلات لحضرة صاحب
المعالى وزير الأشغال ، خاصة بنخفيض ثمن المياه في القاهرة ، كما تردد
خبر اجتماعات اللجنة المؤلفة لهذا الغرض من قديم الزمان ، وسالف
العصر والأوان ! ولقد زعم لى زاعم من المؤرخين أصحاب الاحصاء ، أن
اجتماعها الأخير كان الاجتماع الـ ٤١١ و ٣٢٠ و ٦٢٤ و ٨٥٣ و ٤٧١ !
فترى هل آن أن ينجح السعي ، وتخط الشركة من أثمان الماء ،
فقد مضى على سكان القاهرة ستون عاماً ، وستون عاماً غير قليل ،
وهم يغصون بماء النيل . وكأن التناحر كان بنظر بلحظ الغيب إلى
القاهريين وما يعانون من شركة المياه حين قال :

نفر إلى الشراب إذا غصصنا فكيف إذا غصصنا بالشراب ؟

تري هل ينجح السعي هذه المرة ، ويحق لساكين القاهرة أن
يتمثل بقول الشاعر :

فساغ لى الشراب وكنت قبلاً أكاد أغص بالماء الفرات ؟

يا قومنا : أقسم لكم بالله تعالى ، غير حانت ولا آثم ، إن الشركة

ليست تأمينا بالماء من إفيان ، ولا من إكس ليان ، ولا من فيشى
ولا من بلاد اليابان حتى يلمس لها العذر ، بنفقات الثقل في البر
والبحر ، وأجور الحزم واللف والنعبة والصف ، والتأمين خسوف
الغرق والحريق ، وما عسى أن يدركه من العطش في أثناء
الطريق . وناهيك بحساب ما قد يكسب في الأسواق منه ، وما قد
يجور في المناجر بالنصراف الهواة عنه . ومن يدرى فلربما ظهرت
« ماركة » ماء جديد ، « سوديل » سنة ١٩٣٨ أو ١٩٣٩
فيها من المزايا ، ليس في هذا الماء ، في رى العطاش وبل صدى
الظاء !

ليست تجي بشئ من هذا حتى تغلو هذا الغلو في الأسعار ،
توقياً للنفقات وتوقياً للخسار . إنما تدفع إلينا الماء من نيلنا الذي يشق
سدنسنا ، والذي يجري بين ألدنا ، والذي طالما طفى وزاد ، حتى
أعرف البلاد ، وأهلك العباد وأتى على اليابسة والخضراء ، وألقى
بربات الحدور إلى متن العراء . بل إن من يرى مندفة في دمياط
أو في رشيد ، ليحسب أنه ماض لرى العالم القديم والعالم الجديد .
ونراه يغدو في شمالنا وجنوبنا ألف نرعة ، فإذا جاز بنا ضيقت الشركة
ذرعه ، وباعنا مائه « بالشرية » والجرعة ! حتى أصبحنا ، ونحن نغدو
على حفتيه ونروح ، نتناشد قول الشاعر :

با سرحه الماء قد سدت موارده أما إليك طريق غير مسدود ؟
حقاً يا سيدتي الشركة ، لقد سامتنا « عداداتك » رهقاً وعذاباً ،

شركة تنشيف الريق

وجرعتنا من نيلنا علقماً 'وصاباً' ، وكان من قبل سكرّاً مذاباً ، وكان
شهداً وجلاباً ، لقد ساغ ورداً وحلا شراباً !

حقاً يا سيدتى الشركة ، إنك لتروفين الماء ولكنك تعكرين
النفوس ، وتملئين الآنية ولكنك تخلين الجيوب حتى من الفلوس !
يا سبحان الله ، يا شركة ! تعطينا الماء وتقتضين الذهب ،
ولو كان مالنا نيلا لحف يا شركة من كثرة النزع ونضب !
إرحمينا ، يا شركة ، واعملى معنا بالمثل الذى قالته العامة من
قديم الزمان : « الميه ماتقوتش على عطشان » !

وبعد ، فعندى ، يا سيدتى الشركة ، أكثر من هذا . ولكن
فى فمى ماء وهل ينطق من فى فيه ماء ؟
ونرجع إلى سياقة الحديث فنقول : أما آن لوزارة الأشغال أن
تنجز الوعود ، ولشركة المياه أن تعدل عن دها المعهود ، فتترفق
فى ثمن الماء ، وتخفف عن كواهلنا ما يهددها من الأعباء ، فقد اغترانا
الداء من ناحية الدواء . ولله در شاعر الغبراء :

من غصّ داوى بشرب الماء غصّته
فكيف حال الذى قد غص بالماء ؟

فان فعلت ، وإلا فقد طابت الهجرة إلى البرارى والقفار ،
لنتعوض عن ماء النيل ماء الآبار والأسطار . وإنى لأخشى أن تلاحقنا
الشركة هناك ، وتبسط علينا سوط الاشتراك ، بعد أن تحوز ماء

عبد العزيز البشرى

٢١٤

الغمام فى مواسير ، وتختتم بالعداد على كل بير . فالشركة وراءنا ولو
لعلقنا بالسحاب ، أو تدسسنا فى التراب ، وأمرنا إلى من له المرجع
والمآب !

أرجو أن تنصفينا ، يا شركة المياه ، وتفرجى عنا من هذا
الضييق ، وإلا لاضطررنا إلى أن ندعوك « شركة تنشيف الريق »
والسلام .

* * *



فهرس

صفحة

٩	مقدمة
٢١	أيام في الريف
٢٧	أعظم يوم في تاريخ العالم
٣٧	في الهجرة - بين الحق والقوة
٤٣	خواطر نلهمها ذكرى الهجرة
٥١	يسر الاسلام
٥٧	في الحروب - بماذا كان ينتصر الاسلام
٦٥	كتاب مفتوح من عمر المختار إلى المارشال جرزاني
٧٣	كتاب مفتوح من جرزاني إلى القائد السيد عمر المختار
٨١	ومضان
٨٧	سعد الرجل
٩٣	غدوة وروحة
٩٩	بين الحرب والسلام
١٠٥	كيف نتقى أهوال الحرب
١١٣	هل يكتب لفرنسا العظيمة بعث جديد

صفحة

١١٩	إصلاح
١٢٧	في الإصلاح أيضا
١٣٧	في الطفولة المشردة
١٢٣	في الاجراءات
١٤٩	خواطر في الصيف - بين الصيف والحر
١٦٥	كيف تمتنى في الطرق
١٧٣	الانتقام اللذيذ
١٧٩	بين الصفارة والريف
١٨٥	الأفندي
١٩١	في الضمير العام
١٩٧	فن الاعلان
٢٠٣	التأمين على الموت
٢١١	شركة ننشيف الريق

«كاتب النيل»

كان عبد العزيز البشري رحمه الله أباً
 باراً وأخاً وفياً وصديقاً حميماً. وكان من
 أجل هذا كله محبوباً إلى النفوس أثيراً
 فى القلوب، عزيزاً على الأهل والأصدقاء
 جميعاً وقد كان من القلة القليلة النادرة
 التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس
 ورقة الشمائل.

فعبد العزيز أشد كتابنا المعاصرين
 عكوفاً على حياتنا المصرية وعلى حياة
 القاهرة خاصة، وعلى حياة الطبقة
 الوسطى من أهل القاهرة بنوع أخص.
 فاقراً «قطوفه» هذه فسترى فى كل فصل
 من فصولها مرآة مصقولة صافية
 صادقة أدق الصدن.

طه حسين

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى مائة وخمسون قرشاً

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع

مطابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب